المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب

للمستشرق الهولندي - رينهارت دوزي

ترجمة الدكتور اكرم فاضل مدير الفنون والثقافة الشعبية
وزارة الاعلام / بغداد /

لاادري هل احمد نفسي ام الحاها على القيام بترجمة هذا المعجم . اذ لم اكد اخطو في شعابه بضع خطوات ، حتى قامت بوجهي عقبات لا حصر لها ، فمن لغات اجنبية قد يبلغ تعدادها العشرين ، غربية وشرقية ، قديمة وحديثة ... والحديثة : كالفرنسية والهولندية والالمانية والاسبانية ، مكتوبة بلغة قديمة، والقديمة مكتوبة بلغة اقدم ، كاللاتينية واليونانية . وهناك الآرامية والسريانية والعبرانية والقبطية والحبشية . وثمة كلمة يقول المؤلف انها كلدانية في حين ظهر بعدئذ انها عبرية . وهو يستطرد استطرادات عجيبة ، يهواها الطبع العربي ، ولا يستنكرها الطبع الجرماني ، ولكن السليقة اللاتينية تعافها وتستنكرها. ولو ان دوزي كان يعمل تحت اشراف استاذ فرنسي لنسف كتابه نسفا؛ ودوزي لا يكتفي بالاستطراد، بل يفسر بعض النصوص تفسيرا خاطئا ، ويبني على ذلك التفسير حكما خاطئا . ويوصي باضافة التصريف الفلاني الذي ابتدعه الى المعاجم العربية والتصريف الآخر الى القواميس الفارسية . وهو يدحرج الحوادث التاريخية دحرجة سريعة في تعليقاته ، حتى يكاد ينسيك الموضوع الاصلي .

وشهدته مرة يضيف ثلثين من التعليقات الى الثلث الثالث وهو النص ، دون ضرورة ملحة . ويضرب صفحا عن ذكر المصادر احيانا : فهناك اسم بدون مؤلفات ومؤلفات بدون مؤلف .

لم اذكر هذه المآخذ لاقدح في قيمة الكاتب وخطر شانه ، لاننا يجب ان نتذكر ان المؤلف الفه بين الاعوام 1841 — 1843 ، في قلة من المصادر التي لم يطبع بعضها حتى يومنا هذا .

والكتاب ليس كله ملابس بل فيه تاريخ وادب وفولكلور .

وهو يتناول الازياء في جميع الاقطار العربية ، شرقيها وغربيها . ولكن هذه المواد تخص اكثر ما تخص الاندلس واقطار المغرب العربي ومصر .

واذا اردنا ان نقع على سائر اسماء الملابس العربية ، فاننا سنصاب بخيبة امل . ولكننا نرى طريقة للبحث ونماذج مدروسة ومحاولة جليلة يؤسفني ان اقول ان عربيا واحدا لم يحاول مثلها.

والانكى من ذلك ان الكتاب ظل اكثر من قرن قابعا فى نصه الاول .

وقد اهتديت الى الكتاب بحكم تعييني مديرالفنون والثقافة الشعبية فى وزارة الاعلام العراقية ، اذ وجدت من الخير نقله الى لغة الضاد ، لانه مصدرعالمي يراجع فى فرنسا وانكلترا ومصر ، واخيرا فى العراق . ولاننا نعاين فى العالم كله فورة فولكلوريةجامحة .

اما الطريقة التى سلكتها فهي الاحتفاظ بأسلوب المؤلف ، لانني ارجو من القاريء ان يقرا دوزي كما كان يشاء دوزي ان تقراه . واما النصوص فقد حققتها ما وسعني التحقيق ، الا ان بعضها مسطرا بالعامية ، فكان لا مناص من ابقاء الوضع على حاله . ولكنني من جهة اخرى صححت رواية الابيات الواردة فى الكتاب دون الاشارة الى هذا التصحيح ،لانني لا اريد ان اتحذلق على حساب دوزي . على انني قد اشير الى التصويب فى بعض الاحيان ، على سبيل التنبيه على وجود هفوات .

وختاما ، لا بد لي من التوجه بالاعتراف بالجميل الى الذين شاركوا فى مساعدتي ولو بكلمات معدودات وعلى راسهم المستشرق الفرنسي الاب جان فييه ـ الذي لا أستطيع ان افيه حقه من الشكر ـ والدكتور حسين علي محفوظ والاستاذ عبد الحميد العاوجي والاستاذ هاشم الطعان .

المقدمة

مهما تكن الخطوات ، التي خطاها الادب العربي فى مجال التقدم والرقي ، واسعة فى هذه الازمنة الاخيرة ، فليس بمقدورنا ان ننكر ان علم فقه اللغة لم يقطع نفس الاشواط التي قطعتها العلوم التاريخية والجغرافية . بل اراانا مرغمين على الاعتراف باننا ، فى حلبة علوم اللغة ، لم نندفع الى ابعد مما اندفع اليه الباحثون فى عهد كوليوس Golius

فالحقيقة اننا ما زلنا فى الحالة الراهنة للعلم ، غير قادرين على التفكير تفكيرا جديا بوضع معجم عربي شامل . فان مكتبات اوربا وآسيا وافريقيا ما تبرح تطوي اضالعها على الآلاف من المجلدات المخطوطة، التي ما انفكت حتى عناوينها مجهولة لدينا . ذلك لان مخطوطات اعرق الكتب كلاسيكية فى الادب العربي لم تتناولها يد التحقيق والتدقيق ، بالعناية اللازمة، حتى يومنا هذا ، ولم يعارض بعضها ببعض .

وان القيام بطبع خمسين مؤلفا من الطراز الاول لا يعد عملا كبيرا ، اذا وازناه بالعدد الهائل من الكتب الذي ينتظر بلهفة نشره على الكافة .

وانني اذ اتحدث عن معجم عربي اعني بذلك قاموسا ياخذ على عاتقه ـ الى جانب اهتمامه ، بكل ما لديه من طاقة ، بالمعنى الدقيق الذي كانت تعنيه كل كلمة لدى نشاتها ـ مهمة جعلنا نعلم بصورة محكمة واضحة مختلف المفاهيم التي تلقتها كل كلمة فى الجزيرة العربية وفى فارس وفى سورية وفى افريقيا، الخ ... واخيرا نناشد هذا القاموس ان يكشف لنا عن كل المعاني التي عبرت عنها الكلمات فى جميع الاقطار التي تألفت منها هذه الامبراطورية العربية المترامية الاطراف ، التي امتدت من الهند حتى حدود فرنسا .

وانني اتحدث عن هذا المعجم المنشود الذي انتظر منه ان يستند على الدوام الى نصوص المؤلفين ، فيخط لنا ، اذا صح التعبير ، تاريخ كل كلمة ، وقصة كل جملة . هذا المعجم المفقود الذي يميز ، بوضوح وجلاء ، المعاني الخاصة لكل كلمة فى قطر معين من الاقطار العربية ، من المعاني التي كانت تعرب عنها الكلمة فى قطر معين آخر : القاموس الذي يجب ان يميز معنى كل كلمة لدى الشعراء ، من معناها الخاص لدى كتاب النثر .

وختاما ، انني احلم بالقاموس المنطوي على كل التعابير العلمية والفنية ، المشروحة شرحا منهجيا. ولكنني اكرر القول ان الازمنة التي يستطاع ان يؤلف خلالها هذا المعجم ما انفكت بعيدة كل البعد عنا . وبوسعنا ونحن نرقب هذا العهد المرموق ، ان ندفع عجلة علوم اللغة الى الامام بثلاث طرق . الطريقة الاولى تنحصر فى تدبيج تعليقات وملاحظات من صميم فقه اللغة على هيئة شرح كتاب لمؤلف من المؤلفين ، او باضافة ملحق بشرح الكلمات التي اوردها المؤلف فى كتابه وذلك حين يقدر نشر ذلك الكتاب . وهذا

القاموس الصغير هو بمثابة تكملة للمعجم موضوع البحث . وهذا المنهج هو الوسيلة المتبعة بصورة عامة حتى هذا اليوم . اما الطريقة الثانية فهي جمع الكلمات التى تؤلف صنفا من الاصناف. واما الطريقة الثالثة فهي الاقتصار على لغة قرن واحد او على لغة قطر واحد . ولكن هذه الطريقة لم تتبع حتى هذه اللحظة.

لن اتوقف هنا لمناقشة مختلف المنافع التي تجنيها كل طريقة من هذه الطرق ، ولكنني سأحملكم فقط على ملاحظة ان الطريقة الثانية ، الطريقة التي كنت اول من اتبعها فى هذا الكتاب انصياعا لبرنامج المعهد ، هي التي تنفحنا بفوائد حقيقية ، لا سيما اذا كانت الكلمات المطلوب شرحها تتعلق بالاخلاق والعادات .

فاسمحوا لي اذن ان اقول كلمة واحدة عن الخطة التي رايت من المحتم علي اتباعها .

لقد آمنت باهمية تحقيق الوقائع فى عمل له هذه الطبيعة ، وان اقرب بين شهادات واستشهادات المؤلفين ، وان أعارض بعضهم ببعض . ولم اجرؤ على المجازفة وركوب متن الشطط فى متاهات من التخمينات الاشتقاقية ، التي لو عرضها شخص آخر غيري لبدت مقبولة رائعة بارعة ، ولكن هذه الظنون لن تاتي بنتيجة يطمأن اليها مطلقا .

ان المخطوطات التي ذكرتها تعود ملكيتها الى مكتبة ليدن . وقد اخذت على عاتقي تنبيه القراء دوما حين تؤلف هذه المخطوطات شطرا من مكتبات اخرى . وارى لزاما علي ان الفت الانظار الى انني حرصت كل الحرص بنشري نصوصا لمؤلفين من العصر الوسيط للادب العربي على ايرادها كما كانت مرسومة فى المخطوطات . وان قواعد النحو التي اتبعها هؤلاء المؤلفون تشذ بعيدا عن القواعد التي نحاها نحاة البصرة ونحاة الكوفة ، فوجب علي الا امسخ المؤلفين باعارتهم نحوا لم ينحوه .

لقد شملني دي‌كايانكوس De Gayangos بلطفه فاعارني بضع مخطوطات من مخطوطاته . وسترون على وجه التخصيص ان النسخة النفيسة لرحلة ابن بطوطة ، التي يقتنيها هذا العلامة ، هي التي افادتني افادة بالغة لا مثيل لها . وان هذا السفر هو كتاب من النسق الرفيع من عدة وجوه . اما المختصر المترجم من قبل لي Lee ، فانه لا يهبنا الا فكرة ضعيفة كل الضعف عن اهمية الكتاب الاصلي .

فارجو من دي‌كايانكوس ان يأذن لي بتقديم فروض الحمد والامتنان اليه ، وازجاء عواطف الاعتراف بالجميل لشخصه الكريم على الاحسان الذي خصني به .

وانني لاجسر على ان اؤمل العفو عن بعض الهفوات التي وقعت فى لغة هذا الكتاب الفرنسية ، اذ يكاد يكون امرا مستحيلا على اجنبي مثلي أن يتجنبها . وربما كان اهون علي ان اكتب الكتاب باللغة اللاتينية ، ولكن الموضوع يتعارض وهذه اللغة ، ذلك لانني لو استعملت هذا اللسان لارغمت ارغاما على تفسير الكلمات العربية بتعابير مستعارة من اللغة الرومانية العتيقة ، التي لم تعد مدلولاتها معروفة لدينا بصورة دائمية .

المدخل

فى العهود الاسلامية الاولى ، يوم كان الناس جميعهم على وجه التقريب بداة ، وكانت المدن صغيرة ضئيلة الشان ، كاد فن الخياطة يكون مجهولا ، فقد كانت الشملات البسيطة ، المنسوجة قطعة واحدة ، كافية لضمان وقاية المشتملين بها من صبارة القر وحمارة القيظ . وليس بوسعنا ان نتصور استطاعة خياطة الالبسة وفق طراز انيق ، وكان الحائك وحده يقوم بهذه المهمة . ولكن العرب باستيلائهم الخاطف على شطر كبير من آسيا ومن افريقيا ومن اوربا ، وجدوا انفسهم مرتبطين بعلاقات وثيقة مع شعوب تلك المناطق التي قهروها واستولوا على ديارها ، فى حين ان هذه الشعوب كانت تفوق العرب الفاتحين مدنية وحضارة ، فلم يكن بد للعرب من هجر حياتهم البدوية شيئا فشيئا ، والشروع فى الاستقرار الدائمي فى

المدن (1) فأدركوا يومذاك ان فى مقدورهم عمل ثياب اشد اناقة من الشملات التي كانوا يلتفون بها ، فاستعاروا طرزا كثيرة من طروز الشعوب المغلوبة على أمرها معهم . ولما كان الترف والبذخ والنعيم قد خطا كل منها خطوات واسعة فى ابهة الفرس ، فان بلاط بغداد قد طفق يتفاقم لديه شعور تأثره الذي وقع تحت سطوته من احتكاكه واختلاطه بجيرانه ورعاياه . وكان لانتعاش الحضارة وازدهارها وتقدم التجارة وانتشارها أن انشئت مصانع من كل نوع ، كانت تنسج فيها الاقمشة الحريرية الفاخرة وطرائف الديباج التي لا سبيل الى حصرها ، وقد احرزت بغداد العديد منها.

اما فى الغرب فكانت الحالة على النقيض من ذلك ، فان العرب قد اختلطوا بالمغاربة والبربر. وكانت هذه الشعوب غليظة مخشوشنة . وكانت أوطأ من قاهريها فى سلم الحضارة ، فكان الترف مجهولا لديها ، وحين اختلط العرب بهذه الاقوام ، استعار هؤلاء من العرب لباسهم الخشن ولكن بصورة جزئية.

أما فى اسبانيا ، فان العرب ، وعلى وجه التخصيص خلال فترة امبراطوريتهم الاخيرة ، قد استعاروا الشطر الكبير من ازياء الفرسان النصارى. ويؤكد ابن سعيد (2) بصورة قاطعة ان اقبية العرب فى اسبانية كانت تماثل اقبية المسيحيين . ويقول ابن الخطيب (3) فى معرض حديثه عن محمد بن سعد ابن محمد بن احمد بن مردنيش الذي توفى فى النصف الثاني من القرن السادس الهجري ما يلي : « وآثر زي النصارى من الملابس والسلاح واللجم والسروج » .

ونتيجة لاختلاط العرب بالاجانب ، كان هناك تباين كبير على الدوام بين ازياء الشعوب المختلفة التي كانت تتألف منها الامبراطورية العربية المترامية الاطراف : وبوسعنا ان نميز بسهولة بين عربي من الشرق وبين عربي من الغرب . ويقول ابن اياس (4) وهو يحدثنا عن المؤرخ المشهور ابن خلدون : « واستقر لما تولى القضاء وهو بزي المغاربة فعد ذلك من النوادر » . ويقول النويري (5) وهو يخبرنا عن وفاة الملك القاهر بهاء الدين ابي محمد عبد الملك بن الملك المعظم : « وكان يلبس ملابس العرب ويتزيا بزيهم ويركب كمركبهم ويتخلق بأخلاقهم فى كثير من افعاله » . وحتى أولئك الذين كانوا يقطنون فى المدن متقاربين بعضهم من بعض ، كانوا يرتدون الازياء المختلفة . ويوم حظر فيليب الثاني على مغاربة اسبانيا ارتداء زيهم القومي عبر احدهم المسمى مارمول فرانسيسكو مؤنس مولاي Francisco Nuñez Muley عن هذه الحالة بالكلمات التالية : « ان ازياء نسائنا

---

(1) راجع ابن خلدون (المقدمة ، مخ . ـ 1350 (؟)، ص 158 و 159 الفصل الخاص فى صناعة الحياكة والخياطة) : « اعلم ان المعتدلين من البشر فى معنى الانسانية لا بد لهم من الفكر فى الدفء كالفكر فى السكن . ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحر والبرد . ولا بد لذلك من الحام الغزل حتى يصير ثوبا واحدا ، وهو النسج والحياكة . فان كانوا بادية اقتصروا عليه وان كانوا الى الحضارة فصلوا تلك المنسوجة قطعا يقدرون منها ثوبا على البدن بشكنه وتعدد اعضائه واختلاف نواحيها . ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصائل حتى تصير ثوبا واحدا على البدن ويلبسونها .

والصناعة المحصلة لهذه الملاءمة هي الخياطة. وهاتان الصناعتان ضروريتان فى العمران ، لما يحتاج اليه البشر من الرفه . فالاولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن اسداء فى الطول واللحاما فى العرض واحكاما لذلك النسيج بالالتحام الشديد . فيتم منها قطع مقدرة : فمنها الاكسية من الصوف للاشتمال ، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس . والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الاشكال والعوائد ، تفصل اولا بالمقراض قطعا مناسبة للاعضاء البدنية ، ثم تلمح تلك القطع بالحياكة المحكمة وصلا او حبكا او تنبيتا او تفتيحا على حسب نوع الصناعة . وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما ان اناهل البدو يستغنون عنها، وانما يشتملون الاثواب اشتمالا. وانما تفتيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها . وتفهم سر هذا فى سر تحريم المخيط فى الحج، لما ان مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع الى الله تعالى » .

(2) ابن سعيد لدى المقري (نفح الطيب ، مخدي غوتا ، ص 45) .

(3) الاحاطة ، مخدى كايانكوس ، ص 186 .

(4) تاريخ مصر ، مخ 367 ، ص 202 .

(5) النويري تاريخ مصر ، مخ 2 ، ص 270 ، حوادث عام 676 .

ليست ازياء مغربية . ان ازياءهن هي ازياء قشتالة ».

وفى الاقطار الاخرى كانت الشعوب الاسلامية تتباين فى غمائمها وثيابها واحذيتها ، فهل بوسع احد ان ينكر ان ازياء النساء المغربيات الافريقيات وازياء النساء التركيات تختلف كل الاختلاف عن الازياء التى ترتديها نساؤنا فى غرناطة؟ كما ان ازياء الرجال تختلف كذلك، ذلك لان ازياء فاس ليست شبيهة بأزياء تلمسان، وكذلك ازياء تونس ليست مثل ازياء مراكش ، وكذلك تنطبق الحالة على تركيا والامبراطوريات الاخرى (6) .

وبالاضافة الى ذلك فهناك بون شاسع بين ازياء الطبقات المختلفة التي يتألف منها المجتمع الاسلامي . ويبدو الاختلاف اشد ما يبدو فى شكل العمامة التي تمييز النبيل عن ابن الشعب والجندي، هذه العمامة التي قد يعرف الناس عن طريقها المركز الذي يشغله الرجل الذي يصادفونه (7) . ولكن يجب علينا الا نلجأ الى تطبيق هذه الطريقة بصورة عامة الا على سكان المدن ، لان البدو يكادون يحتفظون بالزي العربي القديم وهم يراعون اوامر الدين ونواهيه اكثر مما يراعيها سكان المدن .

وقد نطق الرسول صلى الله عليه وسلم بالعديد من الاحكام فى سبيل منع تفشي الازياء المترفة الباذخة بين ظهراني اشياعه . واستنبط فقهاء الشريعة الاسلامية من هذه الاحاديث نظاما يضم التعاليم والنصوص الخاصة بالازياء ، وهي التي سنعرضها مقتفين آثار خطى المؤلفات فى الفقه الحنفي والمالكي .

يقول صاحب ملتقى الابحر (8) : ان الملابس تستعمل فى ستر العورة ، وفى اتقاء غائلة الحر وصولة البرد (9) والخير كل الخير ان تكون الالبسة مصنوعة من القطن او من الكتان ، لا هي زاهية باهية للغاية ولا هي اسمال بالية الى ما لا نهاية . ولا يحرم التزين اذا كانت الغاية منه اظهار نعم الله وآلائه التي من بها علينا ، ولكن يحرم ابداء الزينة اذا كان الباعث على اراءتها منبعه الزهو والخيلاء والكبرياء . وان التواضع فى هيئة اللباس هو فى غالب الاحيان موصي به من قبل اعظم حكماء شبه جزيرة العرب وفارس . فيقول النويري مثلا (10) وهو يكيل المديح لصلاح الدين : « وكان لا يلبس الا ما يحل كالكتان والقطن والصوف » . ويقول المؤلف نفسه فى موضع آخر (11) ، بمناسبة وفاة الامير جمال الدين آيدغدي العزيز : « وكان مقتصدا على ملبسه. يلبس ثياب القطن من الهندي والبعلبكي وغيره مما يباح ولا يكره لبسه » .

وارتداء الحرير حلال على النساء ، ولكن هذا القماش محرم على الرجال . فلا يحل لهؤلاء سوى ان يكون لهم فى ملابسهم حاشية من الحرير . هذه الحاشية التي يجب الاتتجاوز الا ربع اصابع عرضا (12) او يجب الاتتجاوز الاصبعين (13) كما يقول الآخرون.

ويرى المالكيون ان هذه الحاشية يجب ان تكون اقل من اصبع عرضا (14) .

وقد تحدث الرسول فى كلمات على درجة كبيرة من العنف والشدة حول الالبسة الحريرية . فقال : « من لبس الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة (15)

---

(6) مارمول ، ثورة الموريسكيين (المتنصرين) ، ص 38 ، مج 3 .
(7) انظر كوتوفيك ، رحلة الى اورشليم ، ص 486 . وراجع بارثي (رحلة عبر صقلية والشرق ، ج 2 ، ص 74 ، 75 .
(8) مخ 871 ، ص 106 ، مخ 1081 ، ص 211 ، مخ 1211 ، ص 164 .
(9) راجع مرجي اوسون Mouradgea d'Ohsson (ج2،ص 130). السحنةالعامة للامبراطورية العثمانية
(10) تاريخ مصر ، مخ 2 ك (2) ص 254 .
(11) المرجع السابق ، مخ 2 ، ص 180 .
(12) ويحل للنساء لبس الحرير ولا يحل للرجال الا قدر اربع اصابع كالعلم . (ملتقى الابحر) .
(13) صحيح البخاري ، ج 2 مخ 356 ، ص 169
(14) ابن ابي زيد ، الرسالة ، مع شرح ابي الحسن علي الشاذلي ، مخ 1193 ، ص 746 .
(15) صحيح البخاري ، ج 2 ، مخ ، ص 169 .

وقال كذلك : « انما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة » (16) .

ويجيز الحنفيون للرجال ارتداء الالبسة التي لحمتها من الحرير وسداها من نسيج آخر . وعلى النقيض من ذلك لا يجوز ارتداء الاقمشة التي سداها من الحرير ولحمتها من نسيج آخر الا في أوقات الحروب .

أما المالكيون فلم يسد الاتفاق بين صفوفهم ، فهم مختلفون بشأن جواز ارتداء القماش المسمى (خزا) وهو النسيج الذي سداه من الحرير ولحمته من الصوف ولكن الكثرة الكاثرة من (دكاترة المسلمين) فقهاء المسلمين تشجبه وتحرمه (17) .

أما الالوان المستحبة الى ابعد الحدود فاللون الابيض واللون الاسود (18) . يستحب اللون الابيض لان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ان الله يحب الثياب البيض وانه خلق الجنة بيضاء » . وقال مؤرخ افريقي (19) وهو يغدق الثناء على عبد الرحمن الاول، أول ملوك الاندلس : « كان يلبس البياض ويعتم به » واللون الاسود مستحب لان الرسول كان يرتديه في يوم فتح مكة ، اذ كان كاسيا بجبة سوداء ومعتما بعمة من نفس اللون (20). اما الشيعة فيمقتون اللون الاسود ، على الضد من ذلك ، لاننا نقرأ في رحلات شاردان (21) : « لا يلبس الناس اللون الاسود في الشرق ، لا سيما في ايران ، فان هذا اللون هو لون تشاؤمي وكريه ، بحيث لا يستطيعون ان يرفعوا ابصارهم اليه وهم يسمونه لون الشيطان». اما اللون الاحمر واللون الاصفر فهما لونان غير شرعيين (22).

ونحن نجهل سر هذه الكراهية ، ولكنني افترض أن اللون الاصفر (المعصفر) هو لون غير شرعي لانه لون الكراهية (23) ، وان اللون الاحمر مقيت لانه لون الدم . وبالرغم من ذلك فان المسلمين يرتدون في أغلب الحالات ثيابا معصفرة او حمراء » .

واذا آمنا بما يقوله ابن جني (24) وكذلك الواحدي (25) في الموضوع نفسه ، فان الثواب اليوافع كن يرتدين الاردية الحمراء عادة . أما الثياب الخضر فلم يكن بوسع احد ان يتزيا بها سوى الاشراف أو عترة الرسول محمد وذرياتهم .

ويبدو بخصوص موضوع الازياء عدم وجود كبير اختلاف بين الحنفيين والمالكيين والشافعيين ، ولكن يخيل الي ان طائفة احمد بن حنبل ـ وهي اشد الطوائف الاسلامية تزمتا ـ قد أمعنت في الجمود الى قرار سحيق في هذا المجال . واليكم ما نقراه في تاريخ مصر للنويري (26) : « وفي هذه السنة فوض قضاء قضاة الحنابلة بدمشق الى شمس الدين ابي عبد الله محمد ـ ووصل اليه بتقليد القضاء من الابواب السلطانية في يوم السبت ثامن صفر وقرىء بجامع

---

(16) ابن ابي زيد ، الرسالة ، مخ 1193 ، ص 745، مع الشرح : « واختلف في لبس الخز بخاء وزاء معجمتين وهو ما سداه حرير ولحمته صوف مثلا على أقوال اشار الى اثنين منها بقوله فأجيز وكره صحيح في القبس الاول واستظهر ابن رشد الثاني . والثالث يحرم لبسه القرافي وهو ظاهر مذهب مالك لقوله عليه الصلاة والسلام في حلةعطارد وكان يخالطها الحرير : انما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة » .

(17) ويستحب الابيض والاسود (ملتقى الابحر) .

(18) مجمع الانهر ، ط القسطنطينية ، ج 1 ، ص 258 : لقوله عليه السلام : « الله يحب الثياب البيض وانه خلق الجنة بيضاء » .

(19) لدى المقري ، تاريخ مصر ، مخدى غوتا ، ص 353 .

(20) المجمع (الكتاب القيم) .

(21) شاردان ج 3 ، ص 69 .

(22) ملتقى الابحر (ويكره الاحمر والمعصفر) .

(23) راجع كتابي (تاريخ بني عباد ، ج 1 ، ص 32 ،ت 105) .

(24) شرح ديوان المتنبي ، مخ 126 ، ص 1103 .

(25) شرح ديوان المتنبي ، مخ 542 ، ص 33 .

(26) مخ 2 ورقة 78 ، حوادث عام 716 .

دمشق بحضور القضاة والاعيان وخرج القاضي شمس الدين المذكور من الجامع ماشيا الى دار السعادة (27) فسلم على نائب السلطنة ثم نزع الخلعة السلطانية وتوجه الى جبل الصالحية وجلس للحكم فى سابع عشر (28) صفر وما غير هيئته ولا عادته فى مشيه وحمل حاجته ويجلس للحكم على مئزر غير مبسوط بل يضعه فى يده ويجلس عليه ويكتب فى محبرة زجاج (29) ويحمل نعله بيده فيضعه على مكان واذا قام من مجلس الحكم حمله ايضا حتى يصل الى آخر الايوان فيلقيه ويلبسه . هكذا اخبرني من اثق بأخباره واستمر على ذلك وهذه عادة السلف » .

وانا فى جهل مطبق ما اذا كان هذا التواضع المفرط من شنشنة كافة مشايعي مذهب الامام احمد ابن حنبل ، أم من شيمة القضاة لوحدهم ، فيؤسفني كل الاسف انه لم يكن بمقدوري حتى مراجعة احدى امهات الكتب فى الفقه الحنبلي حول هذه النقطة ، اذ يبدو ان هذه الاسفار نادرة الوجود فى أوربا .

وسنقارن بغية تكوين فكرة لانفسنا عن التغيرات التي طرات على الازياء العربية ، بين ازياء المحمديين وبين زي رجل من الطبقة المترفهة فى القاهرة فى القرن السادس عشر ، بعد الغزو التركي .

كان الرسول يرتدي بادىء الامر قميصا من القطن الابيض (30) ينسدل ردناه الى معصميه (31) ، وكان يضيف الى هذا القميص سروالا منسوجا (32) . ويخيل الي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يرتدي على القميص والسروال الا رداء واحدا هو الجبة ، وهي عبارة عن رداء طويل من الصوف مطرزة بالحرير ومفتوحة من الامام (33) . وكان لهذا الرداء ردناه الضيقان ، او كان بالاحرى قباء (34) وهو كساء طويل مرصع بالازرار من الجهة الامامية . وكان الرسول فى مناسبات اخرى يرتدي بدل هذه الثياب شملة من النسيج الخشن ، وهي ما نسميه عادة بالبردة (35) المكونة من قطعة كبيرة من النسيج الصوفي السميك ، وهي شهباء اللون مجزعة تلف جسده الكريم كله . وكان الرسول محمد يرتدي العمامة البيضاء او السوداء ويرسل احدى نهايتيها على ظهره (36) .

اما حذاء الرسول فكان يتألف من (صندل) نعال معمول من جلد البعير (37) ومربوط بشراكين يرتمي

---

(27) دار السعادة هي بلاط النائب فى دمشق ، لاننا نقرا فى تاريخ مصر للنويري (مخ 2 ، ص 109) : « وفى عاشر شهر رمضان امر نائب السلطنة بدمشق بهدم العمائر على حبس باب الجديد الى باب الفرديس (الفراديس ؟) . (ذكر الادريسي هذا الباب ، ج 1 ، ص 352 . وفى التاسع والعشرين من شهر رمضان جمع القضاة والفقهاء بدار السعادة فى مجلس نائب السلطنة » . وفى موضع آخر (مخ 19 ، ص 29) : « دار السعادة وهي سكن نائب السلطنة » .

(28) هذا هو معنى كلمة « هيئة » احيانا . ويروي ابن بطوطة (مخدى كايانكوس ، ص 163) ان سلطان الهند منح كل مدينة « صاحب الخبر » اي مستخدما يعلمه عن وصول الغرباء . ويضيف بهذه المناسبة : « وكتبوا اسمه ونعته وثيابه واصحابه وخياله وخدامه وهيئته من الجلوس والمأكل » . ونجد بعد ذلك حول كلمة مئزر الجملة التالية ، المستعارة من كتاب لابن اياس : « ومئزر صوف ابيض تردى به كهيئة الصوفية » .

(29) راجع لين (المصريون المحدثون ، ج 1 ، ص 43) : « كان الكتبة المصريون القدماء ورجالات الادب وكثيرون غيرهم ، يحمل كل منهم دواة من الفضة او النحاس او الصفر » .

(30) راجع معجمي حول كلمة القميص .

(31) النووي ، تهذيب الاسماء ، ص 33 .

(32) راجع معجمي حول كلمة السروال .

(33) راجع معجمي حول كلمة الجبة .

(34) انظر النووي (الكتاب القيم السابق ومعجمي حول كلمة القباء) .

(35) راجع معجمي حول كلمة البردة .

(36) راجع معجمي حول كلمة العمامة .

(37) النووي (الكتاب القيم السابق) .

احدهما على منتصف القدم ويمر الاخر بين الاصبع الكبرى والثانية ، وكان فى بعض الاحيان ينتعل الخف العالي الرقبة (38) .

وهكذا نرى ان ملابس الرسول كانت من البساطة فى الذروة ، وهي نفسها بساطة ملابس سكان الصحراء فى يومنا هذا (39) .

ولا يرتدي البداة فى عصرنا الحالي الا قميصا من القطن وثوبا طويلا ، أو رداء من الصوف بدلا من هذا الثوب ، اقتداء بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

ويتألف زي رجل من سكان القاهرة فى القرن السادس عشر من عدد من الملابس العديدة ، ولم نعد نلاحظ فى هذه القطع تلك البساطة التي كانت تميز زي النبي ، وما زالت بادية للعيان فى ازياء البدويين ، فكانوا يرتدون فوق القميص والسروال ثوبا طويلا اسمه (قفطان) وهو نسيج من الحرير ، على الوان مختلفةمختلطة ببعضها (40)، وهذاالثوب كان لهردنان فى غاية الطول (41) . وكانوا يشدون على القفطان حزاما طويلا من الحرير أو من الليف او من الصوف(32) وتلي ذلك الجبة ، أو الرداء الطويل المفتوح من الجهة الامامية ، التي كان ردناها قصيرين ولا تصل تماما الى المعصمين بحيث يمكن رؤية ردني القفطان الطويلين وقد تجاوزا الاصابع .

ان هذا الرداء كان اكثر قصرا فى الجهة الامامية منه فى الجهة الخلفية ، وكان يعمل من القماش الاحمر أو الازرق أو الاشهب (43) . وكانوا يلبسون فوق الجبة ثوبا فضفاضا يدعى (فرجية) تعمل من المواد الرئيسة عادة وقد تبطن احيانا بالفرو او بغيره (44) . أما الاعتمام فكان يتألف بادىء الامر من طاقية صغيرة من النسيج القطني (45) ثم تلاها الطربوش الاحمر (46) المصنوع من القطن المضغوط ، واخيرا جاء دور القطعة القماشية من الموصلي المحيطة بالراس (47) احاطة السوار بالمعصم الا وهي العمامة . وكانت الاحذية تعملمن الجلد المراكشي الاحمر (48). ان جمال وكمية الثياب تخلع فى الشرق الابهة والوجاهة على مرتديها . ويقول المثل الفارسي : « قربت بلباس » (49) . ومعنى ذلك كما يقول تافرنييه : « يحسن استقبالك وتكريمك وقبولك لدى البلاط وفى أوساط العظماء بقدر ما يكون هندامك حسنا » . اما فى مصر ، فاننا نقرأ فى وصف مصر (الاطلس ، الجزء الثاني ، الصفحة 24) : « كلما زاد تكديس الوجهاء للملابس على ابدانهم زاد اعتبارهم وفاض عليهم الاحترام الذي ينشدونه » .

اذن فلا غرابة ولا عجب اذا راينا الشرقيين يعنون كل العناية بنظافة ملابسهم وتعطير اجسامهم بالروائح العطرية الفواحة. ونجد في كتاب الاغاني(51): « ملاءة مطيبة » . ونقرأ فى تاريخ مصر للنويري (52) انه وجد بين كنوز أحد العظماء : « لعبة من العنبر على قدر جسده برسم ثيابه توضع ثيابه عليها لتكتسب

---

(38) راجع معجمي حول كلمة النعمل .
(39) راجع معجمي حول كلمة الخف ، والنووي (الكتاب القيم السالف) .
(40) انظر بركهارت ، ملاحظات على البدو والوهابيين ، ص 26 ، ومعجمي حول كلمة الفنباز .
(41) انظر معجمي حول كلمة الخفتان .
(42) انظر معجمي حول كلمة الحزام .
(43) انظر هيلفريش ، قصة رحلة مختصرة حقيقية، ص 393 ، ومعجمي حول كلمة الجبة .
(44) معجمي ـ الفرجية .
(45) معجمي ـ الطاقية والقبع .
(46) معجمي ـ الطربوش .
(47) معجمي ـ العمامة .
(48) معجمي ـ المركوب .
(49) راجع شاردان ، الرحلات ، ج 3 ، ص 72 ، تافرنييه، الرحلات، ج 1، ص 631، ريجاردسون، حول كلمة القربة .
(50) الاطلس ، ج 2 ، ص 24 .
(51) ج2 ، ص 41 . (النويري ، مخ (2) ص154 ، حوادث عام 515 .
(52) مخ ط ل ، ص 66 .

رائحتها » (53) ونقرأ كذلك هذا البيت فى كتاب الف ليلة وليلة :

وتميس بين مزعفر ومعصفر
ومعنبر وممسك ومصندل

ونعثر فى مكان آخر من الكتاب نفسه على هذه العبارة : « لبست تلك البدلة الفاخرة وكانت مطيبة » (55) . ونقع فى الكتاب ذاته ايضا على هذه الجملة : « فقعدت تبخره (القناع) فطارت شرارة فاحرقت طرفه » (56) .

ويقول بركهارت عن وهابيي نجد انهم يعطرون بعناية كوفياتهم بعطور من المسك والورس .

وهم يعطرون اردان الثياب بصورة خاصة .

ونقرأ فى كتاب « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ، هذين البيتين لابن زيدون :

اعباد يا اوفى الملوك لقد سطا
عليك زمان من سجيته الغدر

فهلا عداه ان عليك حليه
وذكرك فى اردان ايامه عطر

وفى قصيدة للمتنبي :

اتت زائرا ما خامر الطيب ثوبها
وكالمسك من اردانها بتضوع

وهو بيت ينظر الى بيت لامرىء القيس :

الم تريانى كلما جئت طارقا
وجدت بها طيبا وان لم تطيب

وقد جرت العادة فى تكريم ذات من الذوات ان تخلع عليه ثياب التشريف ، وهي عادة قديمة فى الشرق . ومع ذلك نرى اذا مئنا الى تصديق ما يقوله المقريزي ان أول من مارس هذه العادة من امراء المسلمين هو هرون الرشيد بخلعه ثياب الشرف على نديمه جعفر بن يحى البرمكي . قال المقريزي (60) بالحرف الواحد فى الجزء الثاني من مخطوطة « وصف مصر » : « واول من علمته خلع عليه من اهل الدولة جعفر بن يحى البرمكي » .

ان لباس التشريف يسمى خلعة ويدعى فى العصور الاحدث من العصور القديمة تشريفا . وكان من الامور المعروفة يوم دخول هذه العادة ان يخلع الامير الرداء الذي يرتديه ويكسو به الشخص الذي رام تشريفه او مكافاته ، ولكن لا يبدو فى اعقاب ذلك ان الامراء كانوا لا يهبون الا الثياب التي كانت فى خزائن ملابسهم الخاصة ، او الثياب الجديدة ، ولكن خلع الثياب كان دائما دلالة على التشريف بأن يلبس المرء الثياب التي كان يرتديها الامير نفسه ، ولم يغفل المؤرخون ذكر هذه الظاهرة (61) .

ويقول النويري : « انعم على الامير سيف الدين قلاوون بشربوش كان قد لبسه » .

ولو اردنا ان نقرر على وجه الدقة من اي ملابس كانت تتالف الخلعة او التشريف فى مختلف الاحقاب لواجهنا مشكلة عويصة للغاية بالاضافة الى انه يخيل الينا ان الثياب التى كانت تؤلف الخلعة خلال حكم بعض السلالات كانت تتوقف على اختيار الامير التحكمي . ومع ذلك فان فييرس (62 يخيل اليه ان الخلعة تنحصر فى الاغلب الاعم او فى الحالات الخاصة بالقباء ، ولكن يجب علي ان ابرهن ان هذا الراي غير قائم على اساس . صحيح ان ملابس التشريف فى

---

(53) ترجمة النص الخاص بالنعبة .
(54) طمكناكتن ، ج 1 ، ص 169 .
(55) ج 1 ، ص 568 .
(56) ج 3 ، ص 182 .
(57) ملاحظات على البدو والوهابيين ، ص 131 .
(58) ابن زيدون ، لدى ابن خاقان ، ص 38 .
(59) الديوان ، مخ 542 ، ص 22 . راجع الواحديوابن جنى .
(60) وصف مصر ، ج 2 ، مخ 372 ، ص 351 :واول من علمته خلع عليه من اهل الدول جعفر بن يحى البرمكي .
(61) تاريخ مصر ، مخ 2 م ، ص 215 .
(62) فى تعليقه على تاريخ اليمن ، رتجرس ، ص140 .

عهد حسن باشا الذي كان يحكم اليمن كانت تقتصر على الاقبية (63) ، ولكن لم تكن الحالة فى بغداد وفى مصر مثلا على هذه الشاكلة . وكانت الخاصة وكان التشريف مؤلفين من مختلف الملابس . ويعلمنا النويري (64) ان لباس التشريف الممنوح من قبل خليفة بغداد الملك الناصر داود كان يتالف من قباء اطلس ومن شربوش . ويروي لنا المؤرخ نفسه فى مكان آخر ان الخلعة المعطاة من قبل الخليفة العباسي المعتصم بالله (65) كانت مؤلفة من عمامة سوداء وفرجية مزينة بالذهب . ونقرا فى اسفل هذا الخبر ان لباس التشريف الموهوب من الخليفة كان مكونا من عمامة من الديباج الاسود ومن دراعة .

والخلعة التي كانت تمنح فى مصر الى احد الوزراء كانت تتشكل من الجبة ومن فرجية ومن طرحة (66). وكان التشريف ينحصر كذلك فى مختلف الملابس . واخيرا هناك كلام آخر للنويري (67) يدل دلالة واضحة على ان حلل التشريف كانت تتباين بالنظر للقماش المصنوعة منه (68) وللاجزاء التي تتالف منها (69) وذلك حسبانا للطبقة التي ينتمي اليها الرجل موضوع التشريف والمكافاة ، او حسب الخدمات التي كان قد اداها للامير (70) .

اما لباس الشرف المعطي من قبل الخلفاء العباسيين فقد كان على وجه التاكيد اسود اللون (73). ولا تستعمل الالبسة فى الشرق لسوء الحظ كاداة للزينة فقط ، فان شيطان الكره او الانتقام يستخدمها لينتزع من العدو الحياة بصورة دنيئة . ونحن الغربيين نعلم ان الملابس كانت تستخدم فى العصر الوسيط للغرض نفسه . وان قلة من الامثلة المقتبسة من التاريخ الاسلامي لكافية للبرهنة على ان هذا الشار الخسيس لم يكن غير معروف فى الشرق . ويقص علينا النويري (74) ان السلطان الايوبي الملك المعظم كان قد اضمر فى نفسه حقدا عنيفا لقاضي القضاة، لان هذا القاضي كان اقنع اخت صلاح الدين (ست الشام بنت ايوب) ان توصي بأموالها الى المؤسسات الخيرية . ولما كان الملك المعظم يطمح هو نفسه الى احراز هذه الاموال فان آماله قد خابت نتيجة لحمية القاضي . فبحث الامير خلال بعض الوقت عن ذريعة يتذرع بها للانتقام من القاضي ولكن دون جدوى . واخيرا اهتدى الى هذه الذريعة فارسل رسولا الى القاضي وهو فى مجلس حكمه يحيط به جماعة كبيرة من العدول والمتحاكمين . ويمضي المؤرخ فى قصته فيقول (75) : « فجاء الرسول وقال للقاضي : « السلطان يسلم عليك ويقول لك : الخليفة سلم الله عليه اذا اراد ان يشرف احدا من اصحابه خلع عليه من ملابسه . ونحن نسلك طريقه . وقد ارسل اليك من ملابسه وامر ان تلبسه فى مجلسك هذا وانت تحكم بين الناس . وكان الملك المعظم اكثر ما يلبس قباء

---

(63) راجع تاريخ اليمن ، مخ 477 ، ص 18 ، 34 ، 60 ، 61 ، 112 ، 176 284 ، 298 ، 319 .
(64) تاريخ مصر .
(65) المرجع السابق ، ص 82 ، حوادث عام 643.
(66) المرجع السابق ، ص 144 .
(67) النويري، المرجع السابق، مخ 2 ن، ص 32.
(68) راجع النويري ، المرجع السابق ، مخ 2 و ،ص 58 ، 75 ، 83 ، 116 ، مخ 19 ب ص 22 و 23، 135 .
(69) المرجع السابق ، مخ 19 ب ، ورقة 25 ، ص 30 .
(70) راجع النويري ، المرجع السابق ، مخ 2 ، ص 49 ، 82 ، 144 ، مخ 19 ب ، ص 3 ، كامفر ، التحف النادرة ، ص 65 ، وتعليقة سملية على كلستان سعدى ، ص 46 .
(71) راجع النويري مثلا ، تاريخ مصر ، مخ 2 ن،ص 28 .
(72) النويري ، المرجع السابق ، مخ 2 ، ص 215
(73) راجع ابن بطوطة (الرحلة ، مخ دى كاياتكوس ، ص 194) .
(74) تاريخ مصر ، مخ 2 م ، ص 18 .
(75) ص 19 .

ابيض وكلوتة صفراء . وفتح الرسول البقجة (76) . فلما نظر القاضي الى ما فيها وجم » (77) .

قال الشيخ شهاب الدين ابو شامة : « فأخبرني الرسول الذي احضر هذه الخلعة والرسالة بذلك قال: وكان السلطان قد امرني ان البسه اياها بيدي أن امتنع او توقف . فاشرت عليه بلبسها واعدت عليه الرسالة. فأخذ القباء ووضعه على كتفه ووضع عمامته بأرض ولبس الكلوتة الصفراء على راسه . ثم قام ودخل بيته » . وتضيف المخطوطة : « ومرض اثر هذه الحادثة ورمى كبده ومات » . ويقال ان ذلك كان فى يوم الاربعاء سابع وعشرين شهر ربيع الاول سنة تسع عشرة وسبع مائة (النص كما هو ـ المترجم) . ومات ملك قشتالة (دون انريك) مسموما طبقا لما تقوله بعض التواريخ الاسبانية ، وذلك لان ملك غرناطة محمد كان قد اهدى اليه حذاء طويل العنق مشبعا بالسموم (79) .

وكان الرجال والنساء يرتدون الثياب السود على حد سواء فى العهود القديمة علامة على الحداد ، وذلك لاننا نعلم ان زي الخلفاء العباسيين الاسود كان قد اتخذ كشارة من شارات الحداد بسبب وفاة الامام ابراهيم بن محمد . ونقرا كذلك فى تاريخ مصر للنويري ما يلي : « شق القاهرة وهو لابس السواد واعلامه كذلك حزنا على الظاهر » . ولكن لم تعد البسة الحداد تلبس بعد هذه العصور من قبل الرجال ، وذلك لان هذا يعني عدم الخضوع لمشيئة القدر والحكمة الالهية (81) . ومع ذلك فان النساء ما زلن يرتدين البسة الحداد فى الشرق ، ولكن بمناسبة وفاة الازواج والاقرباء . فنحن نقرا فى الاحاطة لابن الخطيب ، ان الشاعرة الشهيرة حفصة عشيقة ابي جعفر احمد بن سعيد الشاعر الذائع الصيت ووزير حاكم غرناطة ، لبست الحداد لدى علمها بقتل حبيبها (82) . ولكن هذه الحالة ولا ريب استثناء من القاعدة .

وينحصر الحداد فى ان تصبغ النساء القميص وخمار الراس وحجاب الوجه والمنديل باللون الازرق الغامق او باللون الاسود على وجه التقريب ، مضافا الى اللون النيلي . وفى ان يرتدين ملابس الحداد سبعة ايام او خمسة عشر يوما او اربعين يوما أحيانا (83) .

اما فى الاندلس اثناء حكم الخلفاء الامويين فان ملابس الحداد كانت بيضا ، لاننا نقرا فى تاريخ الاندلس (نفح الطيب) للمقري : « عليهم الظهائر البيض شعار الحزن » .

والعرب يرتدون الملابس الحمر او الصفر (المعصفرة) حين يريدون اظهار انهم فى اوج سورة الغضب . فنحن نقرا فى كتاب الف ليلة وليلة : « لبس بدلة الغضب وهي بدلة حمراء » . ولكن ربما كانت هذه العادة شنشنة تركية (86) .

وفى المغرب يشير اللون الاصفر الى الغضب ، ذلك لان (بيدرو دي سان اولون) (87) و (وندس) يلاحظان ان ملوك مراكش ، اذا نووا سفك الدماء ، فانهم يرتدون فى معظم الحالات الملابس الصفر .

---

(76) انظر حول كلمة البقجة او البقشة ، التعليقة حول كلمة التحتانية .
(77) وضعت وجم محل وحم الواردتين فى المخطوطتين .
(78) مؤلف كتاب الروضتين الشهير (تاريخ نور الدين وصلاح الدين) .
(79) راجع كونده ، تاريخ حكم العرب فى اسبانيا ،ج 3 وكوباروقياس ، كنز اللغة القشتالية ، مدريد ، 1611 ، حول كلمة Barzegui
(80) مخ 2 ك (2) حوادث عام 549 .
(81) ان المخطوطة ب (مخ 2 ل ، ص 75) تضيف:« وبنوده » .
(82) مخ د ى كايانكوس ، ص 38 : « ولما بلغ حفصة قتله لبست الحداد وجهرت بالحزن » .
(83) بركهارت ، أسفار فى الجزيرة العربية ، ج 2 ،ص 274 ، لين ، الف ليلة وليلة ، ج 1 ، ص 134 ، 518 . مقتبسات من قصة عنترة ، ص 92 ، 154 ، الف ليلة وليلة ، ط مكناكتن ، ج 1 ، ص 339
(84) مخ دى غوتا ، ص 85 .
(85) تحدثت عن كلمة بدلة فى احدى التعليقات علىهذا الكتاب .
(86) راجع تعليقة لين حول هذه الفقرة ، ج 2 ، ص 326 ، 327 .
(87) الحالة الراهنة للامبراطورية المراكشية ، ص63 ، 172 .
(88) رحلة الى مكناس ، ص 133 .

الاتب و المئتبة

وبعد فاننا نقرأ لدى الجوهري (ج1 م مخ ص 85) اتب الاتب البقير وهو ثوب أو برد يشق فى وسطه فتلقيه المراة فى عنقها من غير كم ولا جيب والجمع أتوب » . وفى القاموس (طكنكتا ص 443) الاتب بالكسر والمئتبة كمكنسة برد يشق فتلبسه المراة من غير جيب ولا كمين ، والبقيرة ، ودرع المراة ، وما قصر من الثياب فنصف الساق ، او سراويل بلا رجلين ، أو قميص بلا كمين . وقد وجدت فى مجمل اللغة لابن فارس (مخ 485) الاتب كالبقيرة . وينتج من هذه الشروح ، التي قدمها اللغويون العرب ، ان الاتب والمئتبة يعملان بصورة عامة من قطعة قماش(1) وبصورة خاصة من قطعة قماش مخططة ، تشق من وسطها ، وحينئذ تدخل المراة راسها من الفتحة المعدة لهذا الغرض . وهذا الثوب محروم من الكمين ، وغير مفتوح من جهة الصدر . ويخيل الينا أن بساطة هذا الثوب تشير الى ان هذا اللباس كان يرتدى فى العهود الاسلامية الاولى ، وما زال النساء – حتى يومنا هذا – يرتدينه فى شبه الجزيرة العربية لان علي بيك يقول فى (الاسفار ، ج 2 ، ص 106) وهو يتحدث عن نساء مكة : « انهن ما يفتأن يلبسن القميص ، على هيئة عجيبة غريبة للغاية لا نكاد نتصورها . ويتألف هذا القميص من قطعتين مربعتين من القماش ، طول كل منهما ست أقدام وعرضها خمس أقدام مخيطة بصورة مجتمعة من الاعلى ، حاشا فتحة فى الوسط ينساب منها الراس . اما الزوايا السفلية فمقورة بمقدار سبع بوصات تقريبا ، وكأنها جزء من دائرة ، بحيث ان ما كان فى بدايته زاوية يصبح تقويرة محفورة . وهاتان التقويرتان مخيطتان معا ، ولكن الجزء السفلي والجوانب تبقى مفتوحة من الاعلى الى الاسفل ، وترتدي موسرات النساء هذه الاقمصة المعمولة من النسيج الحريري المخطط تخطيطا خفيفا دقيقا . وهو رقيق رقة الكاز ويجلب من مصر . والنساء المذكورات يصففنه طيات على الاكتاف ، ويعلقنه حول اجسامهن بمعونة حزام» والاتب بصورة عامة يعني كافة الملابس القصيرة التي لا تصل الى اكثر من منتصف السيقان ، كما ان الاتب يعني – ايضا – نوعا من السراويل القصيرة ، السروال الذي لا فتحة فيه لدخول السيقان ، او انه قميص لا كم له .

المئتـــب

لا وجود لهذه الكلمة لدى الجوهري . ولكن تشير هذه الكلمة حسب راى القاموس(طكلكتا ص 43) الى نفس اللباس المشار اليه بكلمة مشمل ، وهو رداء يشتمل به (المئتب كمنبر . المشمل) راجع كلمة مشمل .

الأخـــروق

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

ولكن يخيل الي انها تعني ضربا من ضروب تيجان الراس المستعملة فى المغرب . يقول ابن بطوطة (الرحلة ، مخطوطة دى كايانكوس) فى مقاله عن بلفار الفولك : وعلى راسها البغطاف وهو اخروف (كذا) مرصع بالجوهر وفى اعلاه ريش الطواويس . ويقول بعد ذلك وعلى راس كل واحدة من البنات (الخادمات) الكلا (كلاه بالفارسية) وهو شبه الاخروف (كذا) وفى اعلاه دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها . ويستخلص من الفقرات السالفة ان كلمة اخروق كانت تعني فى المغرب : « نوعا من التيجان الصغيرة » . (راجع الف ليلة وليلة ت لين ، ج 1 ص 424) المعمولة من الذهب ، المرصعة بالاحجار الكريمة ، التي يستعملها النساء اغطية لرؤوسهن وتحليا بها . ولعلها نفس الزينات الراسية التي تحمل فى اقطار الشرق الاخرى اسم تاج (2) .

---

1) ان كلمة ثوب تعني ايضا قطعة قماش ، فنحن نطالع فى الف ليلة وليلة : فمضيت وعمدت الى ثوبين من الديباج الرومي وجئت بهما اليه وقلت للخياط فصل هذه اربعة ملابس اثنين مفرجة واثنين غير مفرجة . ونقرأ فى مكان آخر من الف ليلة وليلة ايضا : «اقطع لها من هذا الثوب كسوة وخيطها. وقال والله ما ارضى لنفسي من جميع ما معي كفنا اكفن فيه فتصدق علي بكفن». فبعت اليه نصف ثوب بغدادي ومائتى درهم فكفنوه بهما . (تاريخ مصر للنويري (مخطوطة 2) .

2) ان كلمة بغطاف التى يستعملها هنا ابن بطوطة (بالفارسية بغتاف) وجدت مشروحة بعد ذلك على هذه الشاكلة : « وعلى راس الخاتون البغطاف وهو مثل التاج الصغير ، مكلل بالجوهر وبأعلاه ريش الطواويس » .

الارز والازار ، وفى اللهجة المصرية الايزار

كان يبدو فى العهود الاسلامية الاولى ان كلمة ايزار قد استعملت لتعني ثوبا بصورة عامة مهما كان شكل هذا الثوب . فالبخاري (صحيح ، ج 2 مخ 356) عنده باب يحمل عنوان : باب الازار المهدب (1) يقول فيه : ويذكر عن الزهري وابى بكر محمد وحمزة بن ابى اسيد ومعاوية بن عبد الله بن جعفر انهم لبسوا ثيابا مهدبة . والمسألة فى هذا الكلام هي مسألة ثياب بصورة عامة ، وينبغي ان تضيف الى ذلك أن القاموس (ط كلكتا ، ص 451) قال فى ضمن ما قاله ان كلمة ازار تعني كل ما ستر . ومع ذلك فمن المحتمل ان المؤلف أراد أن يشير بصورة خاصة الى الاردية المسمى واحدها ازارا ، وهي الازر التي كان يشتمل بها الرجال فى عهد محمد (ص) .

ويخيل الينا ان رجال عمان كانوا مشهورين بهذه الازياء ، لاننا نقرأ فى عيون الآثار (مخ . 340) ان الرسول قد ترك يوم وفاته ، فيما تركه من ثياب اخرى ازارا عمانيا . وهذا ما يجعلني أعتقد جازما أن المعني فى الكلام السالف بالازار هو الرداء ، ذلك لان المؤلف ابا الفتح محمد او بالاحرى مستنده ابن فارس قد ذكر بالاضافة الى ذلك ثوبين من تلك الثياب التي يسمى مفردها حبرة . (راجع كلمة حبرة فى موضعها من هذا المعجم) . ونجد كذلك كلمة ازار مستعملة فى محل كلمة بردة بالمعنى نفسه . وقد ترك محمد (ص) كذلك ازارا آخر ، مما تحدث عنه فى موضع من المواضع التالية .

اما فى العصور المتأخرة ، فيبدو ان كلمة ازار لم تعد تستعمل لتعيين رداء من اردية الرجال ، ولكن هذه الكلمة قد استعملت طوال عهود الاسلام ، منذ عهد محمد (ص) حتى ايامنا هذه ، للدلالة على هذا الغطاء الكبير او الرداء الواسع الذي تلتف به نساء الشرق . ولننظر اول ما ننظر لى لين كيف يصف هذه اللفافة ولنجاهد بعد ذلك فى البرهنة باستشهادات عديدة على ما قدمناه نحن من راي . اما المحقق الانكليزي ــ وهو مشهور بجدراة واستحقاق بنفاذ بصيرته ــ فيصف الازار على الهيئة التي ترتديه بها النساء المصريات فى يومنا هذا (الف ليلة وليلة ، ج 1 ، ص 210) . وراجع كذلك كتاب (المصريون المحدثون ، ج 1 ، ص 63) اذ يقول : «الازار هو قطعة من النسيج تلتف بها النساء العربيات عادة ، عندما يبرزن للجمهور . عرض هذا الازار ذرعان او اكثر من ذلك (حسب طول المرأة المشتملة به) . وطوله ثلاثة اذرع، وتسحب النساء من قسمه الخلفي حاشية على الجزء العلوي من الراس وعلى الجبين ، ويعلقن هذه الحاشية حينئذ بشريط مخيط من الداخل ، اما البقية فتتدلى الى الخلف والى كل جهة حتى تبلغ الارض ، او تكاد تمسها ، وهذا الازار يلف الجسم كله تقريبا ، لان المرأة تمسك بنهايته بصورة تجعله يلفها من الجهة الامامية ايضا ، وهكذا تغيب فى هذا الكيس . وعلى هذه الهيئة يخفي هذا الثوب كل قطع الحلل الاخرى الملبوسة عدا جزءا صغيرا من الثوب الواسع الفضفاض (ثوب او سبلة) هو جزء آخر من اللباس الغرض منه تمكين المرأة من التجول أو من ركوب الخيل او ركوب الحمار ، وهناك خمار الوجه. وهو يصنع الان بصورة عامة من الخام الابيض . وهذا النوع من الازار كان مستعملا فى عهد محمد (ص) ، ففي صحيح البخاري (ج 2 ، مخ 256) فى الباب الذى سبق لنا ذكره عن الازار المهدب ، نقرأ القصة التالية ، مستندة الى رواية عائشة : قالت : « جاءت امرأة رفاعة القرظي رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا جالسة وعنده أبو بكر فقالت يا رسول الله انى كنت تحت رفاعة فطلقني وبت طلاقي فتزوجت بعده عبد الرحمن بن زبير وانه والله ما معه يا رسول الله الا مثل هذه الهدبة » واخذت هدبة من جلبابها . فسمع خالد بن سعيد قولها وهو بالباب لم يؤذن له. قالت فقال خالد : « يا ابا بكر الا تنهي هذه عن ما تجهر به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم » فلا والله ما يزيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا التبسم . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلك تريدين أن ترجعي الى رفاعة لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته » ، فصار سنة بعده . وكلمة جلباب حسب راى الجوهري (ج 1 مخ 85) هي نفس كلمة ملحفة . والملحفة طبقا لآراء المؤلفين الاندلسيين الذين سنجد كلامهم فيما بعد هي الازار

1) الصيغة الثانية من فعل هدب لا وجود لها فى القاموس .

نفسه . ولنمض الان من شبه الجزيرة العربية الى مصر . واذ نصل الى وادي الكنانة نقرأ في النويري (تاريخ مصر ، مخ (1) ان العلماء قرروا ، في مجمع من مجامعهم ، ان النساء اليهوديات والنصرانيات سيكن مجبرات على التمنطق بالزنار تحت الازار او حسب رواية اخرى – يبدو انها اكثر احتمالا لدى النويري – يشد الزنار فوق الازار لا تحته . واما المرأة فتشد الزنار من تحت الازار وقيل من فوق الازار وهو الاولى . ونقرأ لدى السيوطي (حسن المحاضرة ، مخ 113) : وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة امر بأن يكون ازار النصرانية ازرق وازار اليهودية اصفر وازار السامرية احمر . وبهذه الطريقة كان الناس يستطيعون لاول وهلة التفريق بين هذه المرأة وتلك من جهة ممارسة هذا الدين وذلك ، في حين ان المرأة المسلمة كانت ترتدي الازار الابيض فهي متميزة في كل الاحوال . ونجد لدى ابن اياس (تاريخ مصر ، مخ 367 ، ص 398): وكانت الفاسلة اذا خرجت تفسل ميتة تأخذ ورقةمن عند المحتسب وتجعلها فوق عصابتها مخيطة في ايزارها حتى يعلم انها غاسلة » . اذ في عام 840 حرم السلطان على النساء الخروج من منازلهن) . ونجد في الف ليلة وليلة – ط مكناكتن ج 2 ، ص 121) : عليها ثياب مشرطة وازار وسخ قديم . وفي مكان آخر من الكتاب المذكور ص 134 : ثم اني غطيت عيني ودارت بطرف من ازاري من الناس . وحط فمه تحت ازاري على خدي . وفي موقع آخر ص 229 : كشفت نقابها عن وجهها وقلعت ازارها . وفي موضع آخر (ج 2 ص 228) : وضعت على راسها ازارا عسليا . واخيرا نقرأ في (ج 3 ، ص 540) : وهي ملفوفة في ازار من حرير مزركش بذهب (والحديث عن جارية تجري عملية بيعها) ..

ويطيب لي ان اقرر هنا ان اهل مصر اليوم لم يعودوا يسمون الان هذا الرداء او الشملة اذا كانا مصنوعين من الحرير ازارا ، اذ ان هذا الازار الحريري يطلق عليه هذا اليوم اسم حبرة .

وان الرحالة الاوربيين الذين زاروا مصر في مختلف الازمان ، يتحدثون ايضا عن هذا اللباس ، ولكن معظمهم لا يوردون اسمه . فنحن نقرأ في قصة هيلفريح ما يلي : « ان النساء كن يرتدين حين يخرجن الى مدينة القاهرة ازدية متماثلة . واعني بذلك انهن ساعة يزمعن البروز من منازلهن تلتحف اجسامهن بقماش ابيض بديع ناعم الملمس ، وانهن يسحبن ازديتهن من الجهة الخلفية على الراس ، وانهن يعلقن ملابسهن من الجهة الامامية تحت العنق . وبعد ذلك يلففن انفسهن بدقة واحكام بهذا الرداء الذي يغطين ذواتهن به حتى مواقع اقدامهن . وان هذه الاقمشة التي يستعملنها كازدية لها من الحاشية العليا نوع من الهدب الحريري الاحمر المرصع بالذهب » . ونقرأ في رحلة منتيكازا ص 190 ان النساء اذا عزمن على الخروج من بيوتهن غطين انفسهن تغطية تامة برداء ابيض من القطن المنقوش ، وهو نسيج يسميه الاهالي بافتة ، وهم يجلبونه من الهند ، ويغطين انفسهن به من سمت الراس الى اخمص القدم (2) ولعل وايلد ايضا يتحدث في كتابه (ص 204) عن الازار حين يقول عن نساء مصر : « ان النساء المصريات – اثناء سفرهن او ساعة خروجهن من منازلهن – يرتدين لباسا ابيض على رؤوسهن ليستترن به » . ويتحدث كورني (ص 218) في رحلته عن النساء العربيات في القاهرة فيعبر على هذه الصورة : « انهن حين ينطلقن خارج دورهن يضعن على رؤوسهن وعلى اجسادهن لباسا من القماش الابيض يغطيهن تغطية شاملة بحيث لا يدع لهن شيئا يفلت من هذه الظلمة سوى عين واحدة ، تستطيع ان تهدي كل مراة الى طريقها . ان هذه الاغطية تشبه تلك التي يستعملها الاسبان » .

ويجب علي ايضا ان الفت النظر الى ان كلمة ازار في مصر تلفظ وتكتب كذلك (ايزار) . ولقد راينا سالفا ان هذه الصيغة استعملت من قبل ابن اياس . وهي بعد ذلك ليست نادرة الوقوع في نص الف ليلة وليلة الذي نشره هابيخت . راجع مثلا الجزء الاول من الصفحات 194 ، 310 و 352 مكررة و 356 . وراجع ايضا بركهارت (الامثال العربية رقم

---

1) يخلط المستشرق الطائر الصيت سيلفستري ساسي بين الزنار والحزام . فالزنار في مصر هو حزام الشعوب دافعي الجزية (اليهود والمسيحيين والسامريين) اما زنار المسلمين فهو الحزام ! .

(2) يبدو اذن ان الكلمة الفارسية بافتة كانت مستعملة في مصر ايضا . ففي كتاب آيين اكبري (ج 1 ص 98) ان البافتة هي اسم من بين اسماء المنسوجات القطنية .

56) فهو يكتب هذه الكلمة على نفس الهيئة حين يروي المثل التالي : « ان لقيتها قطع ايزارها قال الدورة على لم الشمل » . وترجمتها عندي : « اذا وجدتها فاشطر ازارها شطرين » . فيجيبه الآخر : « المهم في اللحظة الراهنة هو ايجاد الفرصة لملاقاتها » . (ومع ذلك فبركهارت يتوهم حين يقول: « ان الايزار هو شملة المراة المصنوعة على وجه العموم من الحرير الاسود او من القطن من نفس اللون » . فاذا كانت الشملة التي تتحدث بشانها سوداء فتسمى حبرة . واخيرا فان لين يجزم بصراحة بأن الناس في مصر يقولون (ايزار) .

فاذا تركنا مصر ايضا وعبرنا الى بلاد البربر ، وجدنا الازار ، في القرن السادس عشر وفي القرن السابع عشر في مراكش وفي فاس . اذ يقول ديبكردي توريس في (قصة الشرفاء ، ص 86) في معرض الحديث عن سيدات مراكش : « انهن يرتدين فوق فساتينهن لباسا طويلا يسمينه ازارا ، وهو الذي يسمونه في غرناطة ملحفة ، وهي مصنوعة من الحرير او من الصوف مع زركشات وحواشي من الجوانب مطوية طيات غاية في الذوق والابداع بحيث تتعلق بالصدر بالاضافة الى ترصيعها ببعض الحلقات والاقراط ومواد الزينة ويخترقها دبوس . وهذه التحليات ــ ذهبية كانت ام فضية ــ انما هي لدى الاغنياء . اما لدى الطبقات الاخرى فهي من المعدن» ونقرا كذلك في موضوع النساء في فاس في كتاب دي مارمول (وصف افريقيا ، ج 2) : « ان النساء على جانب مفرط من الجمال ، ولو انهن لسن متعففات في أغلب الحالات ، وهن يرتدين الالبسة باناقة رائعة للغاية ، ويتزين لدى خروجهن من منازلهن بالملابس البيض الفاخرة المصنوعة من الذهب ومن الحرير ، وتلتف فوق هذه الملابس الملاحف او الازر المعمولة من النسيج الهولندي الفاره ، المزينة من نهاياتها بالحرير الملون . وهذه الاردية طويلة طول اغطية السرر ، ولكنها ليست واسعة سعتها ، وعليها في حواشيها شرائط من الحرير الابيض او من لون آخر ، وكلها منسوجة في نفس الازار . وبعد ان تلتف النساء بهذه الازر يشددنها الى الصدر بحلقة ضخمة من الفضة او الذهب ، اما في الصيف فهو الزي الاعتيادي للنساء النبيلات . ويخبرنا دابر في كتابه عن افريقيا ص 241 ان الخادمة التي وجدت ضمن اعضاء سفارة ملك مراكش وفاس في امستردام عام 1659 ــ كانت ترتدي ازارا مصنوعا من القطن الابيض الدقيق . ويبدو لنا أن الازار لم يعد مستعملا في يومنا هذا في فاس ومراكش ، ذلك لان المحقق المدقق الدانمركي هوست لم يتحدث عنه .

اما في مالطة فيكتبون ويلفظون كلمة ليزار وكلمة ليزور . فالكلمة الاولى في حالة الافراد والكلمة الثانية في صيغة الجمع . وهذه الكلمة تعني في هذه الجزيرة ايضا شملة واسعة (راجع فاسالي اللغة المالطية ، المجموعة 442) .

وكان الازار مستعملا في سورية ايضا ، وما برح مرتدي في تلك الربوع حتى يومنا هذا . ونحن نقرا في رحلة هيافريج أن النساء في أورشليم يتكيسن في شملة بيضاء بدلا من الرداء الذي يلف رؤوسهن وكافة ثيابهن ، بحيث انك لا تستطيع تمييز هذه المراة من المراة الاخرى ، وهي الحالة السائدة في القاهرة . ويقول لويس دي فارتما ان النساء في دمشق مرتديات افخر الحلل الحريرية ، أما ملابسهن الفوقانية فهي من القطن الابيض الناعم ، وهذه الملابس لينة الملمس دقيقة الصنع كانها قدت من الحرير . ويروي داندیني في (رحلة من جبل لبنان ، ص 46) ان نساء طرابلس في سورية يلتحفن لدى خروجهن ــ التحافا تاما في شرشف من الكتان الابيض او من القطن بحيث ان الناظرين اليهن لا يرون حتى ايديهن بالرغم من تملكهن حرية تحريك اذرعتهن وايديهن . اما دارفيو في كتابه (مذكرات ، ج 6 ، ص 446) فيقول ان النساء الحلبيات يرتدين فوق ثيابهن دثارا واسعا من القماش الابيض ، يغطيهن من رؤوسهن الى اقدامهن . ويقول فون ريشتر وهو في صدد الحديث عن عرائس التجار الافرنج في حلب : « ان زي السيدات هو الزي العام السائد على الساحل السوري ، فهن حين يخرجن يرتدين شملة بيضاء يدفعنها من الوراء على الراس ، ويعقدنها من الامام تحت الانف ، بحيث انك ان لم تكن على معرفة خاصة بالانوف لن تستطيع التعرف على المتنكرات في هذه الهيئة . واخيرا يقول المقدم نابيه، وهو يتحدث عن نساء بيروت (ذكريات عن سورية ، ج 1 ، ص 117): « انهن ملتفات التفافا تاما بالازار او بالشملة الطويلة البيضاء التي تلف الراس فتخفي الوجه وتسقط على الارض في طيات عديدة ، بحيث انهن لا يكدن يعرفن من قبل اصدقائهن او من قبل ذويهن الادنين » . (راجع الكتاب نفسه ، ج 1 ، ص 133 و 134) .

ويخيل الي أن الازار كذلك دائم الاستعمال لدى النساء المارونيات . (راجع لايت . رحلات الى مصر والنوبيا والارض المقدسة وجبل لبنان وقبرص ص 220 ودقق الصور) .

أما فى الجزيرة فيبدو أن الازار هناك نادر الوجود .

ومع ذلك فاننا نقرأ فى احدى كتب بكينكهام (رحلات الى بلاد ما بين النهرين ، ج 1 ص 392) ان النساء فى ديار بكر يرتدين أحيانا أزرهن المصنوعة من الموصلي الابيض كتلك الازر التي ترتديها النساء فى أزمير وفى دمشق » .

ليس فى مقدوري ان ادع هذه المادة دون ان أترجم بعض فقرات مارمول (وصف افريقيا ، ج 33) ذلك الكتاب الفامض المفمور . اذ يقول الرجل فى معرض كلامه عن النساء المصريات : « انهن يرتدين الشملات الواسعة البيض المصنوعة من القطن الناعم الدقيق الذى يجلب من الهند ، وهذه الاغطية مفصلة تفصيلات مختلفة ، فبعضها يشبه ازر بلاد البربر وبعضها يسمى فى مصر ليسيا (هي كلمة عربية تعني غطاء او خمارا) فهل أراد بليسيا الازار الذي أعرفه ؟ لا ادري .

ولا بد من جهة اخرى ان يكون مارمول قد زار مصر فى عهد قريب كل القرب من كتابة الف ليلة وليلة ، وقد رأينا فى السطور السالفة ان كلمة ازار تظهر أحيانا فى هذا الكتاب . واخيرا فان الوصف المعطي من قبل مارمول عن ليسيا النساء المصريات ينطبق كل الانطباق على أوصاف الازر التى فرغنا توا من قراءتها . لذلك ان مارمول واهم وانه قد أساء الفهم ، ولكن مارمول كاتب مرموق بحيث لا يسعنا السكوت عن ملاحظاته ولو كانت خاطئة .

أما صيغة ازار فهي نادرة ، ولم اقع عليها الا فى هذا البيت المنسوب للاعشى الذي نقله الجوهري (ج 1 ، مخ 85) (الكامل) :

كتميل النشوان يبر
فل فى البقير وفى الازاره

ان كلمة ازار ــ التي تشير الى الغطاء الواسع الذي تلف المراة به جسمها كله ــ قد استعملت من قبل الشعراء للدلالة على المراة نفسها . فنحن نقرأ هذا البيت الذي يرويه الجوهري (ج 1 ، مخ 85) : (الوافر) :

الا ابلغ ابا حفص رسولا
فدى لك من أخ ثقة ازارى

ويضيف اللغوي : قال ابو عمرو الجرمي يريد بالازار هاهنا المراة . (راجع القاموس ، ط كلكتا ، ص 451) . ولكن لكلمة ازار معنى آخر ايضا . فهي تعني نوعا من التبان لتغطية الارداف والاعضاء الطبيعية (العورة) . فنحن نقرأ فى عيون الآثار (مخ 340) أن الرسول ترك بين مخلفاته : ازارا طوله خمسة اشبار . وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ارتداء التبابين والسراويلات خلال ايام الحج ، وأمر بالتعويض عنها بالازار . ولكنه قال : « من لم يجد ازارا فليلبس سراويل » . (راجع صحيح البخاري ، ج 2 ، مخ 356) . وراجع باب البرانس وباب العمائم . ويقول النويري فى (تاريخ مصر مخ 2) : فاعطاني هذا الازار وقال : « قد احرمت فيه عشرين حجة » . واخيرا يعلمنا وايلد فى احد كتبه (ص 64) ما يلي « وفى تلك الامسية ، واصل الحجاج سفرهم لدى غروب الشمس ، فلم يرتدوا البستهم ، ولكنهم اكتفوا بستر اعضائهم الطبيعية فقط بنسيج وبلف اجسامهم عموما بالاحرام الذي هو قطعة من القماش المصنوع من الشعر . (راجع كذلك فى الصحيح الكلم النوابع ، ص 121).

ويروي الرواة ان النبي (ص) قال : « انها ستفتح عليكم ارض العجم وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات فلا يدخلها الرجال الا بالازار » . (الرسالة لابن زيد ، مخ 1193 ؛ ص 747) .

ويبدو أن صيغة ازر نادرة الوقوع . فنحن نقرأ فى الميداني (مخ 232 ص 16) المثل التالي :

« ان كنت بي تشد أزرك فأرخه » . ويشرح الميداني هذا المثال فيقول : « اي تتكل على فى حاجتك فقد حرمتها » . ويظهر أن كلمة ازر معناها هنا حزام ، كما قال فريتاك فى (الامثال العربية ، ج 1 ص 25) او بالاحرى هي كما يقول أزرك بعد نسم همزة الكلمة محل وضع حزامك ، اي وسط الجسم . ولكن الجوهري لم يورد معنى لكلمة حزام وكذلك فعل القاموس ، ولكنني انبه الى ان الحماسة (طـفريتاك ، ص 657) قد فسرت معنى كلمة مؤزر على هذا النحو : « قوى من الازر وهو موضع عقد الازار من الحقو » .

المئزر ، المئزرة ، المئزار

تعني كلمة مئزر تبانا Caleçon وهذا ما يقطع به لين فى ترجمته لالف ليلة وليلة (ج 2 ، ص 398) حيث يقول ان كلمة ميزر او مئزر تستعمل حاليا (فى مصر) للدلالة على : زوج من سراويل .

ونجد هذه الشرعة فى الفقه المالكي : « لا يدخل الرجل الحمام الا بمئزر » (ابن ابي زيد ، الرسالة ، مخ 1193 ، ص 747) ولدى النويري ان الحاكم بأمر الله (تاريخ مصر مخ 2 ك ، (2) ص 98) امر « ان لا يدخل احد الحمام الا بمئزر » . والواقعة ذاتها يرويها المقريزي ، ويوردها سيلفستردى ساسي (طرائف عربية ، ج : ، ص 55 النص العربي) . ونقرا لدى ابن اياس (تاريخ مصر ، مخ 367 ، ص 249 فى حوادث عام 824) : « قيل لما ارادوا غسل الملك المؤيد لم يجدوا له الا اناء صغيرا يصبون به عليه الماء ولا وجدوا له منشفة ينشفون بها لحيته حتى اخذوا منديل بعض من حضر غسله ولا وجدوا له مئزرا يسترون به عورته حتى اخذوا مئزر بعض الجواري النائحات وهو مئزر اسود سعيدي خشن فسبحان من يعز ويذل » .

ان كلمة مئزر التي لا يمنحها فريتاك الا معنى كلمة باليم (Pallium) اي صدرة الكاهن او المشمال او اللفاع الافريقي ، تعني كذلك قطعة القماش التي تستر العورة ، والتي تلبس من السرة الى اسفل .

ونحن نقرا فى رحلة ابن بطوطة (مخ دى كايانكوس ، ص 226 و 227) : « وبها زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان لانه لا يلبس عليه الا ثوبا من سرته الى اسفل وباقي جسده مكشوف ، وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر . حكاية هذا الشيخ : وكان من أولياء الله تعالى قائما على قدم التجريد يلبس مئزرة وهو ثوب يلبسه من سرته الى اسفل » .

وتعني كلمة مئزر كذلك : كساء . فنحن نقرا لدى ابن اياس (تاريخ مصر ، مخ 367 ، ص 281 ، حول حوادث عام 822) : « وكان السلطان لابس جبة صوف ابيض وعلى راسه عمامة صغيرة بعذبة مرخاة على كتفه ومئزر صوف ابيض بردى به كهيئة الصوفية». ونجد فى الف ليلة وليلة (نشر مكناكن ، ج 1 ص 158) : « وضع عليهم ميزرا اسود وصاروا يتفرجون من تحت الميزر » . ويقول فيما يقوله (فان سليب) (تقرير جديد عن رحلة الى مصر ، ص 307) — وهو يصف ازياء رهبان القديس انطوان على سفح جبل كولزم — ان المئزر الذى هو فى اللغة القبطية احيانا (ميزروس) واحيانا (بلوز) هو رداء كبير من قماش اسود بطانته بيضاء ، شبيه بأردية الآباء اليسوعيين الا انه بلا ياقة . ولكنهم فى غير حالات السفر لا يستعملونه الا فى حالات نادرة جدا » . اما فى يومنا هذا فان كلمة ميزر لم تعد تستعمل — كما يبدو — بهذا المعنى فى مصر . راجع لين (الف ليلة وليلة ، ج 2 ، ص 398) .

اما القاموس فيقول ان كلمة مئزرة لها معنى كلمة باليوم (Pallium) اي صدرة الكاهن او المشمال او اللفاع الافريقي . ولعل المستشرق (فان سليب) كان ينظر الى هذه الصيغة حين كتب كلمة ميزر .

واخيرا فان كلمة مئزر تشير الى نوع توك Toque (قطعة خرقة او مئزر او قلنسوة او طاقية القاضي) . ذلك لاننا نقرا لدى ابن بطوطة (الرحلة ، مخ دى كايانكوس) : « ومن غريب ما اتفق لي يومئذ اني دخلت فرايت القضاة والخطباء والشرفاء (ص 80) قد استندوا الى حيطان المشور (1) وهو غاص بهم

---

(1) تعني كلمة مشور فى لغة عرب المغرب قاعة فى قصر . راجع : مارمول فى كتابه (وصف افريقيا ، ج 2، ص 31، مج 2) حيث يروي لنا ان قصر امبراطور مراكش يحتوي على قاعتين فخمتين ، تسميان Mexuars حيث يجلس السلطان ، فيعقد فى احدى القاعتين المجلس العام الذي يشهده خواص البلاط ، اذ يجتمعون للتشاور وتبادل وجهات النظر فى المسائل المهمة بحضور الملك». ويسمى المشور الخاص ، فى رسائل ابن الخطيب .
ويترجم بيدرو دى الكالا فى كتابه (مفردات اسبانية عربية) مجلس الملك : Consejo real
ويترجم Chancelleria الى مشور . و secretario الى صاحب المشور . ويذكر دييكو دى توريس فى كتابه (قصة الشرفاء ، ص203) كلمة Mesuar ، حيث يعقد الملك مجلسه .
وفى مكان آخر (ص 163) يقول : وكان الرؤساء والشيوخ فى ال Mezuar ، وهو المحل الذي اعتادوا الاجتماع فيه مع الملك اثناء بحث الشؤون العامة » . وفى جهة اخرى يورد المؤلف بعض الكلام (ص 317) فيقول : « يبدو ان الملك يتناول طعامه فى المشور ، ويؤكد نفس هذه الواقعة مارمول (ج 2

من جميع جهاته وهم بين باك ومتباك ومطرق وقد لبسوا فوق ثيابهم خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها مما يلي أجسادهم وعلى راس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود وهكذا يكون فعلهم الى تمام أربعين يوما وهي نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة » . حدث هذا عقب وفاة ابن الملك ايذج . ونجد فى تاريخ مصر لابن اياس (مخ 367 ، 288) : « وكان السلطان لابس جبة صوف أبيض وعلى راسه مئزر أبيض ملفوفا عمامة صغيرة بعذبة مرخاة » . وبهذا المعنى عبرت كلمة المئزر الى اسبانيا تحت صيغة الميزر Almaizar ويعرر معناها كوباروفياس فى كتابه (كنز اللغة القشتالية، مدريد ، 1611) فيقول : الميزر Almaizer عبارة عن لفافة راس أو برقع مراكشي يشبه الطرحة. وهذه اللفافة مصنوعة من الحرير الخالص الموشي بضروب الالوان مع هدبات وعذبات . ويقول دييكو دى أوربا ان هذه الكلمة بصيغتها العربية تنطق على هذا المنوال : ازار Yzarum فأل هي الاداة ، وما ـ قلنا فى مواضع اخرى ـ هي علامة اسم اداة :

Al-ma-yzerum, almaizar, couverture

ويلف المغاربة هذا الازار حول الراس ، ويدعون نهايات الحواشي تتدلى على الاكتاف » . وبهذا المعنى توجد كلمة اليزل Almaizal أو الميزر almaizar فى عدة كتب اسبانية قديمة . وكانت تلبس هذه اللفافة من قبل الرجال والنساء على حد

ص 103 ، مج 2) . وان مؤلف الكتاب الذي عنوانه « مهمة تاريخية فى مراكش ، ج 2 ، مج 2 ، ص 50) يكتب Mexuar ، مثل مارمول ، ويفسر هذه الكلمة بأنها قاعة مخصصة للجلسات العامة . ونحن نقرأ فى رحلة ابن جبير (مخ ، ص 190) : « وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام » . ويبدو أن هذا النوع من القاعات كان معظمه مكشوفا ان لم يكن كله . اذ يقول جاكسون فى كتابه (تقرير عن مراكش، ص 121) انه يوجد قرب القصر فى مدينة مراكش المشور M'shoar او محل عقد المجلس ، وهو بناية واسعة كثيرا على شكل مربع ، محوطة بجدران، ولكنها مكشوفة ، ويعقد الامبراطور هناك جلساته لسماع افراد رعيته واقامة ميزان العدالة » . وفى كتاب آخر هو (تقرير عن تمبكتو ، ص 138) يقول نفس الرحالة ما يلي : « رفعت خيامنا الخاصة فى المشور Mushoir اى فى محل عقد الجلسات ، على ارض منبسطة محاطة بسور ، حيث يجتمع الشيخ الى مختلف عشائر سوس فيعظمها » . ويقول بيدون دى سان اولون فى كتابه « حالة امبراطورية مراكش الراهنة ، ص 75) : « ان المشور mishuart هي رحبة مكشوفة ، مزدانة بأعمدة ونقوش بارزة من الرخام . ويكتب لمبرير فى كتابه (جولة فى مراكش، ص 246) mâchoire ويشرح هذه الكلمة بأنها جزء مكشوف من القصر » .

وتدل كلمة مشور كذلك على جزء من قصر منفصل عن بقية العمارة . ويقرر جارنت فى كتابه (رسالة جوابا على اسئلة غريبة مختلفة ، ص 48) : « يوجد قرب قصر مدينة مراكش عمارة فخمة ، تدعى michouar يقطنها العلوج أو المرتدون الذين يرافقون الملك على الدوام لدى خروجه » . ونقرأ فى كتاب (رحلة فى ولايات البربر عام 1785 ، ص 48) ما يلي : « يوجد عدد هائل من المشاور أو المساكن المنفصلة ، بحيث يستحيل تعدادها » . وبعد ذلك نقرأ (ص 51) : « يوجد مشور عظيم بجوار الاماكن التي تسكنها النساء اللواتي هن فى خدمته ، هناك حيث تقع اربعة ينابيع وحمامات مزوقة بالمرمر. ويقتصر المشور على اربع مقاصير يتوسطها فناء وحديقة . وهذا المشور قريب الشبه بالدير » .

لقد رأينا اعلى كلامنا هذا ان كلمة مشور تدل بصورة خاصة على القاعة المعدة للاجتماعات . ولهذا السبب فان هذه الكلمة تطلق كذلك على الاجتماع العام نفسه ، كما يؤكد ذلك بصورة قاطعة هوست فى كتابه (اخبار من مراكش ، ص 169) وكذلك كرابر دى همسو فى كتابه (مرآة جغرافية واحصائية لامبراطورية مراكش ، ص 198) .

وتعني كلمة مشور فى ايامنا هذه حصنا أو قلعة. راجع : العقيد سكوت (يوميات اقامة فى مخيم عبد القادر الجزائري « اسم الله) ص 71 ، 160 ، 236 ، 242 ، 260) .

ولعل لكلمة مشور نفس المعنى فى كلام ابن بطوطة (المخطوطة ، ص 268) : « والمشور فى وسط هذه المدينة وهو كبير جدا ودار الامارة فى وسطه وهو يحف به من جميع الجهات » .

سواء . راجع (اغاني الموريسكيين الشعبية ، ص 237 و 239 الخ ــ وحروب غرناطة الاهلية ، ص 237 و 239) .

وقد عبرت كلمة مئزر كذلك الى ايطاليا ، ففي جنوه تطلق كلمة ميزارو Mezzaro على قطعة كبيرة من القماش ملونة مزخرفة تغطي المراة بها راسها وكتفيها . راجع : (اوصاف جنوه، عام 1781، مع الصورة) . اما كلمة مئزار فلا اتذكر انني صادفتها.

البـــردة ، البـــرد

قبل أن نورد تفصيلات عن هذا اللباس ، نرى من الضروري ان نؤلف عنه فكرة بالغا ما بلغت هذه الفكرة من قلة الدقة . فدونكم اذن ــ كيفية وصفه من قبل لين فى ترجمته لكتاب (الف ليلة وليلة ج 3 ص 241) : «البردة قطعة طويلة من القماش الصوفي السميك ، الذي يستعمله الناس لاكساء اجسامهم به خلال النهار والمتخذ كذلك غطاء اثناء الليل . اما لون هذا القماش فاسمر ، أو رمادي . ويبدو ان هذا النسيج كان فى العهود القديمة مخططا على الدوام ».

والبخاري فى صحيحه (ج 2 ، م 356 ، ص 168) يعرض علينا فصلا عنوانه : «باب البرود والحبرة والشملة» الذى نقرا فيه ما يلي : «وقال خباب شكونا النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له » . والرواية التالية يرويها انس بن مالك . قال : « كنت امسي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه اعرابي فجبذه بردائه (1) جبذة (2) شديدة حتى نظرت الى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته . ثم قال يا محمد من لي من مال الله الذي عندك . فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك ثم امر له بالعطاء » . والحديث التالي يرويه سهل بن سعد . قال : « جاءت امراة ببردة فقالت : هل تدرون ما البردة . قال سهيل : نعم هي الشملة منسوج فى حاشيتها . قالت : يا رسول الله اني نسجت هذه بيدي اكسوكها . فاخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم محتاجا اليها . فخرج الينا وانها لازاره . فجسها رجل من القوم فقال : يارسول الله اكسنيها. قال : نعم . فجلس ما شاء الله فى المجلس ثم رجع فطواها ثم ارسل بها اليه . فقال له القوم : ما احسنت . سالتها اياه وقد عرفت انه لا يرد سائلا ــ فقال الرجل : والله ما سالتها الا لتكون كفني يوم اموت. قال سهل : وكانت كفنه »

وسنجد الحديث التالي فى موضوع كلمة (نمرة) والحديثين الاخيرين فى موضوع كلمة (حبرة) .

جاء فى عيون الاثار (م 340 ، ص 189) ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يلبس يوم الجمعة برده الاحمر . ونقرا للمسعودي (لدى كوز كارتن ، طرائف عربية ، ص 268) ان الخليفة المقتدر العباس كان يضع على كتفيه وصدره وظهره البردة التي كان يرتديها رسول الله (والبردة التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم) على كتفيه وصدره وظهره) .

ان هذا اللباس كان مستعملا فى الاندلس ، فنحن نرى فى ملاحظة دي‌كايانكوس (المقري ، تاريخ السلالات الاسلامية فى الاندلس، ج 1 ، ص 413) ان هذا الرداء كان نوعا من الكساء الغليظ (3) وهناك ايضا كاتب لامع هو ابن خاقان يذكر كلمة برد فى مواضع كثيرة من مجازاته واستعاراته ــ فنجد مثلا هذه الجملة لدى هذا المؤلف فى (قلائد العقيان ، ج 1 ، م 306 ، ص 6) : « برد عمره قشيب » . ومعنى ذلك ان حياته تشبه بردا جديدا . ونجد كذلك فى مكان آخر (لدى فيرس ، لابن خاقان ، عن ابن زيدون ، ص 23) فوافاها والربيع قد خلع عليها برده (4)

ويبدو ان البرد كان معروفا كثيرا لدى فلاحي مصر فى الازمنة الغابرة . اذ يقول وايلد فى كتابه (وصف رحلة اسير مسيحي ، ص 204) : « ان فلاحي هذا القطر يرتدون فوق قميصهم الواسع الفضفاض بردة طولها عشرة اذرع وعرضها ذرعان يلفون بها

---

(1) ان هذا الكلام يبرهن لنا بصورة واضحة ان كلمة رداء تقابل كلمة مانتو Manteau بصورة عامة ، لذلك فلا حاجة لمعاناة القراء عناء البحث عن كلمة رداء فى كتابي هذا .

(2) ان كلمة جبذة لا وجود لها فى القاموس .

(3) راجع كلمة كساء فى محلها .

(4) لقد اشتق الاسبان من كلمة برد صفة هي Burdo التى سموا بها نسيجا غليظا كما سموا بها رداء غليظا .

اجسامهم ويلتحفون بها فى الليل » . ولا يتطرق الى ذهني شيء من الشك بتاتا حين يتحدث احد الرحالة الاقدمين وهو بلون فى كتابه (ملاحظات ، ص 226) عن احد الاكسية بأن هذا الكساء هو البردة نفسها فيقول بأن « المصريين يرتدون قميصا طويلا ابيض اللون ليس على شيء من التعقيد فى التفصيل ، كما يرتدون نوع رداء لا خياطة فيه ، مصنوع من الصوف وكأنه سجادة خفيفة يلفون به اكتافهم وجزءا من اجسامهم وليس لهم من رداء سواه حين يجوسون خلال الديار . واذا اتفق لهم عبور ماء عميق فانهم يلفون رداءهم وقميصهم حول راسهم ، فكأنهم عقدوا على رؤوسهم التيجان ، وهكذا يستطيعون عبور نهر النيل حتى فى أيام الفيضان » ... ان كلمة السجادة التي استعملها الرحالة الفرنسي الشيخ المحترم تصور لنا البردة ادق التصوير . وحسبما يقول لين فى كتابه (المصريون المحدثون ، ج 1 ، ص 189) ان البردة لا يرتديها فى ايامنا هذه الا عدد ضئيل من الفلاحين المصريين ، وهذه البردة تكون فى بعض الاحيان خالية من الزخرفة كما تكون فى احايين اخرى مخططة بصورة متقاربة النقوش بحيث يخيل للناظر اليها من كثب انها ذات لون واحد .

واعتقد ان البردة كانت مستعملة كذلك لدى بدو مصر ، لانني اقرا فى رحلة منتكازه الى اورشليم (ص 112) « ان بعض البدو يسترون اجسامهم بقطعة من القماش طولها خمسة اذرع ، ويتدلى ثلاثة ارباع هذه القطعة تقريبا من جهة الذراع اليسري » . ونقرا كذلك فى كتاب كويان (درع اوربا ، ص 325) « ان عامة الناس هناك يسترون اجسامهم بمجرد قطعة قماش من الصوف تلتف حولها التفاف الافاعي». ونطالع فى قصة تيفنو (قصة رحلة الى المشرق ، ص 329) « ان الناس يدرجون مرتدين قميصا طويلا ارزق اللون مخيطا من جميع الجهات حتى الاسفل ، ولهم قطعة قماش كبيرة من الصوف الابيض الغليظ يلفونها عدة لفات على اجسامهم وتحت اباطهم وفوق اكتافهم » . واخيرا ، يقول دارفيو فى كتابه (مذكرات، ج 1 ، ص 205 و 206) عن البدو فى الاسكندرية الذين يؤجرون حمرهم للمسافرين : « ان اردیتهم لا تحول بينهم وبين العدو والكدح مطلقا ، وهذه الاردية تنحصر فى قطعة طويلة من البركان او فى النسيج الصوفي الهفهاف ، الذي يردفون نهاية منه على رؤوسهم ويحيطون سواعدهم واجسامهم واوراكهم بسائره ، ويربطونه ربطا محكما بحزام جلدي ؛ بحيث لا يحتاجون الى تفصيل ولا خياطة باتخاذهم منها ما يشبه مسوح الرهبان وما يماثل الاردان والاثواب والسراويل » .

وكانت اليمن بصورة خاصة مشهورة بحياكة الاقمشة التي كانت تصنع منها البرود . (النويري ، نهاية الارب ، م 273 ، ص 96) ــ وكانت تعمل كذلك فى دمياط . واليكم ما يقوله كوبان فى كتابه (درع اوروبا ، ص 479 و 480) : « ان طائفة من سكان دمياط بارعون فى الفنون الميكانيكية ، وقد مهروا على وجه التخصيص فى حياكة الاقمشة المنقوشة بألوان مختلفة ، وتسمى هذه الاقمشة (بور) Bourgs ولعلها البرشم التي لا أعرف معناها .

البرطل والبرطل

يفسر الجوهري (ج 2 ، م 85 ، ص 180) والقاموس (ط كلكتا ، ص 1396) هذه الكلمة بانها قلنسوة . راجع هذه الكلمة (1) .

البرقع ـ البرقع ـ البرقوع

اليكم ما نقرا لدى الجوهري (ج 2 ــ م 85 ــ ص 2) : البرقع والبرقع للدواب ونساء الاعراب ، وكذلك البرقوع . قال يصف جؤذرا (الطويل) :

وخدا كبرقوع الفتاة ملمعا
روقين لما يعدوان تقشرا

ونحن نعلم عن الشعراء العرب انهم كثيرا ما اوردوا كلمة برقع فى اشعارهم ــ كأمثال المتنبي وابي العلاء المعري وغيرهما . (بعد تفهمنا للبيت الذي استشهد به الجوهري يخيل الينا ان البرقع كان ملونا بمختلف الالوان فى قديم الزمان) وان شعراء العرب طالما ذكروا هذا البرقع فى مجازاتهم واستعاراتهم . ولكن يبدو ان هذا البرقع قد زال من عالم الاستعمال فى العصر الوسيط من التاريخ العربي ــ كما يظهر ان سلطنة الازياء قد احلت محله انواعا اخرى من البراقع . وارى اننا سنحاول عبثا

(1) تاج الاسقف Mître (المترجم) .

اذا سولت لنا انفسنا البحث عن هذه الكلمة فى كتاب الف ليلة وليلة ـ هذا الكتاب الذي وردت فيه اسماء انواع اخرى من البراقع . وانني أرى ـ ان لم اكن متوهما ـ ان البرقع لم يوجد فى مصر الا فى مستهل القرن المنصرم تقريبا .

ويصف الكونت دى شابرول فى كتابه (وصف مصر ـ ج 8 ـ ص 114) هذا الخمار على هذا المنوال : « حجاب يستر الوجه من جذر الانف ـ ويشد الى زينة الراس أعلى الجبين ومن كل جانب . وهو قطعة من الموصلى أو من نسيج الكتان الابيض الرقيق الدقيق ـ طوله طول الوجه ويتدلى حتى الركبتين . وهذا الخمار لا غنى عنه للمراة التي تغادر منزلها » . ونقرأ كذلك فى كتاب بوكوك المعنون (وصف الشرق ـ ج 1 ـ ص 339) : « ان عوام النساء يضعن على وجوههن نوعا من الغطاء الخفيف مشدودا بشريط الى زينة الراس فوق الانف » . ونطالع فى تقرير ويتمان (رحلات فى تركيا الآسيوية وسورية ومصر ـ ص 379) : « ان قطعة من الحرير تؤدي اكمل الاداء وظائف البرقع ـ بحيث لا يستطيع المشاهد ان يرى من الوجه الا العينين تقريبا » . (يقول المؤلف هذا القول عن عوام النساء ـ وفى اللوحة العشرين يمكن رؤية زي امراة من القاهرة من طبقة اعلى . والبرقع الاسود يتجاوز وسط هذا الجسم فقط) وتشير كلمة البرقع الى الشيء الذي تشير اليه كلمة يشمق التركية ـ ذلك لاننا نقرأ فى كتاب تيرنر (يوميات جولة فى المشرق ـ ج 2 ـ ص 308) ان هذا الرحالة واجه ـ اثناء رحلته من دمياط الى الاسكندرية ـ نساء قبطيات « مبرقعات بيشمق yatchmak طويل اسود يبدأ من نهاية الانف ويتدلى حتى الركبتين » . ويقول المؤلف نفسه فى مكان آخر (ج 2 ـ ص 396 ـ متحدثا عن عوام نساء القاهرة) : « ويتدلى من هذه الطرحة على الجبين ـ مستعينا ببعض الحلى الذهبية او الفضية او النحاسية الصغر ـ يشمق من القطن الاسود او من الحرير الذي يغطي الوجه بتمامه اللهم الا العينين ـ ويهبط حتى الصدر ـ بل قد ينحدر أحيانا حتى يصل الى الركبتين » . وفى الختام دونكم ما نقرأ فى الكتاب الجميل لمؤلفه لين (المصريون المحدثون ـ ج 21) : « البرقع او خمار الوجه (لنساء الطبقة المتوسطة) هو عبارة عن قطعة طويلة من الموصلى الابيض ـ وهي تغطي الوجه بأكمله ـ الا العينين ـ وتتدلى حتى تبلغ القدمين او تكاد . ويشد هذا البرقع الى النهاية العليا بشريط ضيق يطوق الجبين . وهذا ـ شانه شان نهايتي البرقع من الاعلى ـ مخيط الى شريط آخر يدور حول الراس » . ويقول نفس المؤلف بعد ذلك (ج 1 ـ ص 24) : « ان عوام النساء يضعن برقعا مصنوعا من الكريب (الكريشة) الاسود الغليظ ـ وبعض النسوة من عترة الرسول صلى الله عليه وسلم يضعن البراقع الخضر على وجوههن » . واخيرا يتناول بالوصف فى مكان آخر (ج 1 ـ ص 66 ـ 67) زينة البرقع على هذه الشاكلة فيقول : « ان القسم الاعلى من البرقع مزدان فى معظم الحالات باللالىء الزائفة وبقطع من النقود الذهبية وبتحليات اخرى من نفس المعدن ـ وهي صغيرة ومسطحة تسمى (برق) ـ كما يحلى فى بعض الاحايين ايضا بحبات من المرجان ـ وتحت هذه قطع من النقود الذهبية . وتوضع احيانا قطع معدنية فضية ضئيلة القيمة ـ والعادة المتبعة كثيرا هي وضع زوجين من السلاسل المعدنية او الفضية ـ كل سلسلة معلقة بنهاية من الجهة العليا وتسمى (عيون) . وبوسعنا ان نشاهد هيئة البرقع فى كتاب لين (المصريون المحدثون ج 1 ص 62 ـ 64 ـ 65 ـ 66) وفى الكتاب التالي (وصف مصر ـ المصور ـ ج 1 ـ اللوحة 41) . ولا يوضع فى ايامنا هذه غير هذا النقاب على وجوه النساء فى مصر . اما فى سورية ـ فنساء البدو تلبس البرقع ـ ويسمون كبلس keblis . راجع بركهارت (تعليقات على البدو والوهابيين ـ ص 29). وقد ظل هذا النوع من الحجاب مستعملا كذلك فى الساحل السوري . (رجع ـ تيرنر ـ يوميات جولة فى المشرق ـ ج 2 ـ ص 105 ـ 304) . اما فى الجزيرة العربية فان البرقع ملبوس فى ايامنا هذه من قبل نساء مكة وجدة والمدينة ـ فهن يضعن على وجوههن البراقع البيض او الزرق . راجع (رحلات فى الجزيرة العربية ـ ج 1 ـ ص 239 ـ ج 2 ـ ص 239) .

ويبدو ان البرقع كان مستعملا فى شيراز خلال القرن الرابع عشر ـ ذلك لان ابن بطوطة يقول فى رحلته ـ متحدثا عن نساء هذه المدينة : « ويخرجن ماتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء » . (الرحلة ورقة 83 مخ دى كايانكوس) . ويتحتم على كذلك ان الفت النظر الى ان كلمة برقع فى ما وراء النهر لا تشير الى ستر للوجه ولكنها تعني غطاء كبيرا او رداء تلتف به المراة التفافا شاملا . ونحن نقرأ فى قصة فريزر (رحلة الى خراسان ـ الملحق ب ـ ص 89):

« وتطرح النساء على الجسم (جادر) chudder او ملحفة من الحرير تدعى boorkah وهذه تغطي الجسم من الراس الى القدمين ـ ولكنهن يدعن فتحة صغيرة على هيئة شبكة بجوار العينين ـ والحالة نفسها متبعة لدى الفرس ، وهذا الاجراء يسري حكمه على سواكن الحواضر فقط . أما نساء الريف فهن حواسر الوجوه وكذلك شأن عجائز المدن . (المرجع السابق ـ ص 86) . وفى موضع آخر يقول المؤلف نفسه (ص 104) : « ان نساء المدن والقرى يتقنعن كالمسلمات فى الولايات الاخرى ـ وهن يضعن براقع boorkas على وجوههن تتدلى من الراس حتى القدمين » .

البركان ـ البرنكان ـ البركاني ـ البرنكاني

تشير هذه الكلمات اما الى هذا النوع الغليظ من القماش (الزملوط Camelot) الذي يسميه الفرنسيون Bouracan ، كما يسميه الاسبان Barracan ـ وهما كلمتان مشتقتان من التسمية العربية بركان ـ او انها تعني رداء مصنوعا من هذا القماش . ومع ذلك ، طبقت كلمة بركان ، فى هذه الازمنة الحديثة ، على أردية مصنوعة من الاقمشة الاكثر نعومة والاعلى ثمنا ، ولكنها فى الوقت نفسه قد فصلت على هيئة البركانات القديمة . ويتحدث دييكو دى هيدو فى كتابه (خطط مدينة الجزائر ، و 9 ، مج 1) عن بدو مدينة الجزائر فيعبر عن الموضوع بالعبارات التالية : « ان ملابسهم هي قطعة من البركان Barragan (Un pedaço de barragan) البالي الممزق . وهم يلفون اجسامهم بها ، ويتخذون منها فى الليل غطاء لمنامهم وفرشتهم . وتستعملها النساء نفس الاستعمال » . وفى مكان آخر من نفس الكتاب (ص 8 ، مج 4) يتناول عين المؤلف كلمة بركان بمعنى رداء ، فيقول ان قبائل مدينة الجزائر يرتدون جميعا كساء Alquicer (راجع كلمة كساء) . يغطون اجسادهم به ، او يلبسون بركانا Barragan غليظا ، مصنوعا من الصوف العادي يلفون اجسامهم به » . ويقول اخيرا دى هيدو (ص 19 ، مج 2) ان البركانات المفرطة فى دقة الصنع ، التي تستعمل أردية للنساء ، تجلب الى مدينة الجزائر من بلاد البربر ، ولكن البركانات الغليظة التي يستتر بها الاعراب (البدو) او يلبسونها هم الفقراء تصنع فى قسنطينة وفى كولو . وما يزال البركان حتى أيامنا هذه يستعمل فى المغرب . فنحن نقرأ فى كتاب بلاكير Blaquiere (رسائل من مالطة ، ج 2 ، ص 75) : « ان الاعراب يلبسون نوعا من البركان الاسمر تعلوه عمامة . الاول ملتف كيفما اتفق حول الجسم ، ويبدو فى غاية اللطافة والحلاوة بتعلقه بالكتف اليسري » . وفى قصة انكليزية اخرى (قصة اقامة عشر سنوات فى طرابلس الغرب ، ص 20) : « ان البدو يلبسون بركانا صوفيا سميكا لونه لون البن الغامق ، طوله خمسة او ستة اذرع وعرضه ذراعان تماما او على وجه التقريب . وهذا زيهم الكامل فى النهار ، اما فى الليل فهو فرشهم وغطاؤهم . ويلبسون هذا الثوب بضم نهايتيه العاليتين بمعونة سنبك من الحديد او الخشب ، وبعد أن توضع هاتان النهايتان على الكتف اليسري يطوي الرداء طيات حول الجسم ، ويلبس بعض البدو هذا الثوب بصورة بديعة خلابة . ويرتدي البدو نفس النوع من البركان ، الذي هو بالنسبة لبعضهم اللباس الوحيد ، لان من النسوة من يضفن اليه قميصا » . واذا رجعنا الى تقرير النقيب ليون (اسفار فى الشمال الافريقي ، ص 39) علمنا ان البركان يلبس من قبل الرجال والنساء العرب القاطنين فى اطراف طرابلس الغرب ، وان نساء المدينة يرتدين كذلك هذا اللباس لدى خروجهن من بيوتهن . (المرجع السابق ، ص 17) أما بركان نساء الطبقة العليا فانه مصنوع من الحرير أو من خيوط القطن الناعمة ، وهؤلاء النساء يؤثرن الالوان البراقة ، وهن يلبسن هذه الاردية فى هيئة تشكل فستانا انيقا ، وذلك بعقده بصورة رائعة على الراس وعلى الكتفين (المرجع السابق . ص 18 . قارن اللوحة الثانية). ونحن نقرأ فى السفر المعنون (قصة اقامة عشر سنوات فى طرابلس الغرب ، ص 6) : « ان نساء الطبقة المتوسطة يخرجن عادة ماشيات على الاقدام، ولكنهن لا يخرجن أبدا دون أن يكن مصحوبات بجارية او بخادمة . وهن يلتففن حينئذ التفافا تاما بحيث يكون من الاستحالة بمكان تبين شيء عدا طولهن ، ذلك لانه ليس من السهولة تبين حتى قامتهن . ولهؤلاء النسوة رداء ـ يدعى بركانا ـ يبلغ عرضه نحو ذراع ونصف ذراع وطوله اربع او خمسة اذرع . وهذا الرداء يغطيهن كل التغطية ، وهن يسددن به وجوههن سدا محكما فلا يكدن يدعن الا فتحة بالغة الصغر لرؤية طريقهن . والنساء اليهوديات يلبسن

هذا القسم من ازيائهن نفس اللبسة تقريبا . ومع ذلك فهن يتركن احدى العينين للرؤية ، وهذا ما لا تفعله المراة المغربية ولو كان ثمن هذا التصرف الدنيا بأجمعها ، اذا كانت تأبه للرأى العام ، لانها لو تجرأت ففعلت فان سمعتها بالتأكيد سينالها كل سوء » . (المرجع السابق ، ص 31) . ويقول الرئيس الاول دنهام (رحلة الى الشمال الافريقي ، ج 1 ، ص 27) : « ان الرجال يرتدون البركان المصنوع من الحرير الابيض الشفاف ... والبركان الغليظ يلبس كذلك فى سخنا (راجع ليون ، ص 73). ويقرر روجيه فى كتابه (الارض المقدسة ، ص 205) فى معرض التحدث عن البدو : « بعضهم يدرجون عراة فلا يرتدون سوى بركان او ازار من اغلظ الاصواف يلفون به الجسم لفا لاخفاء البطن والاجزاء المخجلة (العورة) » . راجع الصورة ، ص 207 .

البريـــم

اننا نقرا لدى الجوهري (ج 2 ــ مخ 85 ــ ص 268) : « وقال ابو عبيد : البريم الحبل المفتول يكون فيه لونان وربما شدتـه المراة على وسطها وعضدها » . وانشدنا الاصمعي (الطويل) :

« اذا المرضع العوجاء جال بريمها »

ونقرا كذلك فى القاموس : وقد يعلق على الصبي يستدفع به العين خيطان مختلفان ، احمر وابيض (ط كلكتا ــ ص 1577) . تشده المراة على وسطها وعضدها وكل ما فيه لونان مختلفان وحبل لنمراة فيه لونان مزين بجوهر تشده المراة على وسطها وعضدها .

ونطالع فى شرح اشعار جرير ايضا (مخ 633ــ ص 102) البريم الحقاب وهو خيط تشده المراة فى حقوها . وانما جعله بريما لاختلاف الوانه ، وكل لونين مختلفين فهو بريم . يريد جال بريمها من هزالها وربما كان من خرز . وفى شرح التبريزي للحماسة (ص 556) : والجديل هو الوشاح او ما تشده المراة فى حقوها من الادم المضفور وليس هذا من عادة العرب وانما الاماء يفعلن ذلك . واذا كان من لونين فهو البريم وهذا يشد فى احقى الصبى تدفع به العين وانما يتخذون البريم من الخيوط ليشد فى احقى الصبيان فتدفع به العين (راجع ص 704 من نفس الكتاب) . وراجع كذلك كاترمير فى ملاحظته القيمة حول العين السيئة بخصوص المثل الواحد والثلاثين من امثال الميداني ــ وهي موجودة فى المجلة الآسيوية ــ السلسلة الثالثة ــ الجزء الخامس ــ الصفحة 242 ــ ولم ينس هذا العالم الجليل ان يورد عبارتي التبريزي اللتين فرغتم من قراءتهما) .

وما برح البريم مستعملا فى ايامنا هذه لدى البدو ــ واليكم ما كتبه حول هذا الموضوع بركهارت فى كتابه (تعليقات على البدو والوهابيين ــ ص 28): « ان الرجال والنساء يرتدون منذ الطفولة حزاما من الجلد على اجسامهم العارية ــ ويتالف هذا الحزام من خمسة سيور جلد مبرومة على بعضها بحيث انها عادت تشكل حبلا له سمك اصبع . وقد سمعت من يقول ان النساء يشددن سيورهن المنفصل بعضها عن بعض حول اجسامهن . والنساء والرجال سواء فى تزيين الاحزمة بقطع من الاشرطة او بالتمائم والتعاويذ والاحجبة . والعنزيون يسمون هذا الحزام حقوا Hhakou ويسميه اهل الشمال بيريم Bireim ويقول الرحالة نفسه (ص 131) فى نفس الكتاب ــ فى معرض حديثه عن الرجال والنساء المجاورين لمكة والطائف : « ان النساء والرجال على حد سواء يشدون فوق ميادعهم الجلدية احزمة جلد مؤلفة من اشرطة جلدية طويلة دقيقة مبرومة اثنى عشرة برمة او اكثر ــ وهي منتفة على اجسامهم . وتشد النساء اشرطة مماثلة ــ ملفوفة على جلد البطن العاري تحت الميدعة ــ وهذه عادة شائعة فى الصحراء بتمامها . ويؤكد البدو ان محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يتحزم بحزام من هذا النوع » .

البرنس ، البرنوس ، البرنوس

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

ويتبادر الى الذهن أن من الصعوبة بمكان تقرير ما كانت تعنيه كلمة برنس فى قديم الزمان . وطبقا لراى القاموس (ط كلكتا ، ص 739) يكون معناها قلنسوة طويلة او كل ثوب راسه منه ، دراعة كان او جبة او ممطرا . ويقول احد شراح شعر المتنبي المجهولين فى (الشرقيات ، ج 1 ، ص 289) : « ان البرنس الصغير هو بخنق. لذلك لا يبدو لي من باب الاستحالة التامة ان كلمة برنس كانت تعني فى العهود القديمة نوعا من الطاقيات الصغيرة التى كانت تعتمر بها الرؤوس ، ذلك لان كلمة قلنسوة ، التي يستعملها مؤلف القاموس تعني حقيقة ــ كما سنرى

ذلك فيما بعد ـ طاقية او عرقية . وهكذا فان هـذا اللغوي ـ حين يقول قلنسوة طويلة ـ يظهر انه يشير الى : طاقية تتدلى حتى الكتف . اما كلمة بخنـق المستعملة من قبل شارح المتنبي فانها تشير كذلك الى عرقية (راجع ص 55 و ص 56) .

ويزودنا البخاري (الصحيح ، ج 2 ، مخ 356، ص 167) بفصل من هذا الكتاب معنـون : بـاب البرانس . وارى ان كلمة برنس مستعملة فيه كذلك بمعنى طاقية . واليكم كلمات البخـاري : وقال لـي مسدد ، حدثنا معتمر ، سمعت ابي قال : رأيت على انس برنسا اصفر من خز . حدثنا اسماعيـل قـال حدثني ان رجلا قال : يا رسول الله ما يلبس المحرم من الثياب ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تلبسوا القمص ولا العمائـم ولا السراويـلات ولا البرانس ولا الخفاف ، الا احد لا يجد النعلين الخ . .

واذ ان هذه الكلمة قد عينت فى الازمنة القديمة طاقية فانها لتشير اشارة ـ لا سبيل الى الاسترابة فى امرها ـ فى العصور الحديثة الى معطف ضخم له قلنسوة . وانني افترض ان كلمة برنس فى القديم كانت لا تنطبق الا على قبعة الراهب الكبوشي التـي كانت تشبه البرنس القديم ، أو الطاقية ، وتلقـى المعطف بأجمعه ، على طريق التوسع ، هذه التسمية منذ ذلك الحين .

ولنبدأ بالمغرب . وها نحـن نقـرأ فى كتـاب ديكو دى هيدو (خطط مدينة الجزائر ، ورقة 8 ، مج 2) الذي يتحـدث عـن الجزائريـين العـرب : « يرتدون فوق جماع ثيابهم لباسا يشبه المعطف وهو البرنس الابيض Albornoz ،ولكن افراد الطبقة الارفع يرتدون البرانس الملونة السود أو الـزرق ، وفى ايام البرد يتدثرون بدثار آخر من نفس الالوان . وفى مكان آخر (ورقة 19 ، مج 2) يخبرنا المؤلف ان هذه البرانس تجلب من تلمسان الى مدينة الجزائر: والكثير من هذه البرانس البيض والسـود والزرق بديع النسيج محكمة » .

ونجد فى كتاب مارمول (وصف افريقيا ، ج 2 ورقة 83 ، مج 2) فى مادة مدينـة مكنـاس : « ان النساء يغزلن الصوف الدقيق الناعم وينسجن برانس فاخرة من الحرير والقطـن ، وبرانـس اخـرى من القطن والصوف يطلق عليها اسم Bornoz de Mequinez (que llaman Mequinecis) وهذه البرانس مدعاة للتقدير والاعجاب فى افريقيا ، ذلك لانها تنسج نسجا انيقا فتكون طويلة الاعمار ، بالاضافة الى كونها دقيقة الصنع » .

ويقول دارفيو فى كتابه (مذكرات، ج 5 ، ص 281) فى الفصل المعنون : « ملابس رجال ونساء مدينة الجزائر ما يلي : « ان المغاربة والمنتصريـن (الموريسكيين) والآخرين الذين يساكنونهم فى المدن لهم برنس ابيض منطرح على اكتافهم يقوم لديهم مقام المعطـف » . ويضيـف الى ذلـك (ص 282) ان الاتراك فى مدينة الجزائر « ينسدل على اكتافهم برنس له قبعة فى نهايتها عقدة ضخمة من الحرير » . ويقول بعدئذ (ص 283 و 284) : « ان معطفهم الاحتفالـي حين يجوسون دروب المدينة زائرين أو عاديـن الى الديوان هو برنس من القماش الاسود شتاء أو مـن الكربيون (1) الحريري أو من الصوف . اما اللون فهو ذاته صيفا وشتاء . وهذه البرانس التي سبق لي ان وصفتها لها حواشي وهدبات مطرزة بالحرير تحيط بها من كل جانب . وهي ضيقة من الاعلى وواسعة من الاسفـل ، ولهـا قبعـات تشبـه قبعات الرهبـان الكبوشيين التي تعلو كل واحدة منها قنزعة ضخمة من الحرير . وهم يغطون رؤوسهم بقبعات البرانس لدى سقوط المطر . والبرانـس كافـة تكون عادة سوداء اللون سمة التواضع والاحتشام التي يتظاهر بها القوم . وهذا اللون لليهود وحدهم ـ القاطنين فى مملكة مراكش وفارس ، حيث يلبس الناس الآخرون البرانس البيض او الحمر . فهم يلبسـون الاطفـال البرانس الحمر فى مدينة الجزائر ، ويستعمل وجهاء الناس فى الريف هذ اللون ايضا . اما رجـال الادب والمفتون فانهم يرتدون البرانس البيض . ويصنـع اهل تلمسان هذه البرانس ، وهي محركـة بصـورة تجعل احد جوانبها متموجا كانـه عنقـاش (زملـوط Camelot) اما الجانب الآخر فيشبـه أصواف الحملان المجعدة التي ترد من البحر الاسود . وهم يدعون الشعر متوجها الى الداخل اثناء موسم الشتاء ويدعونه متجها الى الخارج فى فصل الصيف أو عند ما تمطر السماء ، ذلك لان المطر ينساب فوقه دون ان يخترقه ، واذا الحت عليه الامطار بمدرارها فان نفضه عدة نفضات يكفي لعودته جافا كأن لم يمعن فيه الغيث » .

---

(1) نوع من الكريشة الفليظة .

ويكتب وندس في كتابه (رحلة الى مكنـاس ، ص 28) كلمة البرنس هكذا Albornooce ويورد تفاصيل عن هذا الكساء . ونحن نقرأ في رحلة شـو الى بلاد البربر والشـرق (ج 1 ، ص 320) : « ان البرنس الذي يشبه معاطفنا يلبس في اغلب الاحيان فوق (الحيك Le Hyke) ليقي لابسه من البرد. وهو الى ذلك فرع مرموق من فروع صناعات الانسجة الصوفية لديهم . وهم ينسجونه قطعة واحدة ، وهو ضيق حول العنق ، ومزود بقبعة ، او بقمع مخروطي Une chausse de Hippocras لتغطية الراس، اما من الجهة السفلى فهو واسع يشبه رداء الفارس. وبعض هذه البرانس مطرزة من الاسفل من نهايـات الحواشي والهدبات .

وفي منتصف القرن الماضي لم يعد البرنـس الذي يلبسه اهالي مملكة فاس ومراكش يسمى برنسا وانما يدعى زلحما (راجع هذه الكلمة) ، ولم يبق من عشاقه الذي يلبسونه الا اليهود . فقـد ترك هـذا البرنس او هذا البرنوس ، كما يكتبه هوست في كتابه (اخبار من مراكش ، ص 146) فان هذا الرحالـة الجليل يتحدث عنه على هذه الشاكلة : « ان جميـع اليهود يلبسون البرنس Le bernûs الاسود ؛ ولكن لا يسمح لهم بارتدائه على نفس الهيئة التي يرتـدي بها المغاربة الزلحم Zolhâm ، وعلى العكس مـن ذلك ، ما يكون لدى المغاربة من الجهة الامامية يوضع لدى اليهود على احد الاكتاف ، وما يكون لدى المغاربة من الجهة الخلفية يوضع لدى اليهـود على الكتـف الآخر . (انظر اللوحة الثانية والعشرين الشكل الاول) ان المزعوم علي بيك (الاسفار ، ج 1 ، ص 4) يصف على هذا المنوال البرنس كما يرتديه اهالي طنجة : « نوع من انواع الاكياس . اجل ، كيس كبير غليظ له قبعة » . ويكون هذا الرداء ابيض اللـون في هذه المدينة ويلبس فوق الحيك (المرجع السابق ص 16) ويزودنا هذا الرحالة حول برنـس اليهـود بنفـس التفاصيل التي نجدها في الكتاب الذي ذكرناه آنفـا لمؤلفه هوست (علي بيك ، ص 33) واعتمادا على تقرير النقيب ليون (اسفار في الشمال الافريقي ، ص 6) نعلم ان سكان طرابلس الغرب يرتدون البرنـس الصوفي الابيض الناعم ، ويلبسونه في المناسبات الرسمية كساء آخر له شرائط من ذهب .

وارى ان العبارة التالية من قصة (رحلات فان خيستلا ، ص 31) وهو اقدم جميع هؤلاء الرحالين يجب ان تطبق على البرنس ، يقول : « ان المغاربة يرتدون ايضا نوعا من انواع الفماء (غطاء للراس) وهو دثما من نفس اللون ، ويقرب كثيرا من هيئة ذلـك النـوع الـذي يرتديـه الرهبـان الشارتريـون Les Chartreux ولكنه اوسع كثيرا ، بحيث يبدو وكأنه حلة القداس الخارجية Une chasuble اذن فالبرنس موضوع البحث هنا كان ابيض اللون .

وفي العبارات التي فرغنا من قراءتها لم يصل الى علمنا ان البرنس كان اخضر اللون كذلك . ولكن يبدو ان اللون الاخضر للبرانس يوجـد احيانـا في ايامنا هذه في الجزائر ، ذلك لانني قرات في صحيفة ليدن ، الجمعـة ، 12 آب 1842) : « يشـاع فـي مرسيليا حدثة وصول رجل محتـرم من اهالـي الجزائر الى هذه المدينة يدعى المزاري بيك . — وقد ظهر المزاري نفسه مرتديا — كما هي عادته — برنسا اخضر اللون مفرط الروعة » . الخ .

ان مؤلف تاريخ المرابطين والموحديـن الـذي عنوانه « الحلل الموشية ، مخ 24 ، ص 9 » يعد من بين الهدايا المهداة من قبل الامير يوسف بن تاشفين الى عمه ابي بكر بن عمر : مائة برنوس منها منيـرة وكحل وحمر .

وقد كان البرنس في اسبانيا رهن الاستعمال ، ومن هذه الكلمة العربية اشتق الاسبان كلمتهم البرنز Albornoz الذي جرى وصفه على قلم كوباروفياس (الكنز ، مدريد ، 1611) على هذا النحو : « انـه معطف مقفل، مزود بقبعة، ويلبس اثناء السفر. وهو مصنوع من قماش لا ينفذ المـاء فيـه ، ويستعمـل المغاربة هذا النوع من المعاطف كثيرا او يتخذونـه غطاء . ويقول اوربا انه معطف افريقي ضد المطـر يدعى برنسا ، وهو اسم بربري سماه به الزناتية » . ونقرأ في نفح الطيب للمقري (مخ دي غوتا ، ص 88) ان لباس الشرف ، المهدى من قبل الحكم الثاني الى اوردنيو الرابع كان دراعة منسوجة بالذهب وبرنسا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت .

اما في مصر فكان المماليك يرتدون البرنس ، لانني اقرأ في قصة الامير رادزفيل Le prince Radzvil (الرحلة ، ص 30) : « وعلى لباسهـم الفوقاني الذي يسمونه البرنس يسدلون من الجهـة الخلفية جلد حيون » .

اما في ايامنا هذه فان المصريين لا يلبسـون البرنس ، لان كلا من الكونت دي شابرول وليون لم يتحدث عنه . (راجع لين هذا في ترجمته لكتاب الف ليلة وليلة ، ج 3 ، ص 157) .

ويبدو ان البرتس لم يعد قيد الاستعمال منذ قرون في اقطار الشرق الاخرى .

اما عن صيغة الكلمة فقد راينا آنفا ان هوست قد كتب هذه الكلمة هكذا (برنوس) ، وفي مالطة ينطقون هذه الكلمة نفس النطق فيقولون برنوس (راجع فاسيلي ، قويميس مالطي ، مج 24) . ويقول لين في (كتابه القيم) انهم ينطقون بالكلمة على شكلين ، فيقولون برنوس وبرنس ، وقد فرغنا من معرفة وجود الكلمة مكتوبة هكذا : برنوس في المخطوطات الثلاث للحلل الموشية . وفي عبارة اخرى من نفس الكتاب نقرا كذلك كلمة (برنوس) في مخطوطة ليدن (ص 8) وفي مخطوطة (دي كايانكوس ورقة 12) على حد سواء .

البطان والجمع البطانات

لا وجود لهذه الكلمة في القاموس .

وكان البطان مستعملا في اسبانيا ، وهو يشير الى حذاء قروي معمول من جلد الثور المدبوغ ، ذلك لان بيدرو دي الكالا في كتابه (مفردات اسبانية عربية) يترجم كلمة اباركا دي بالو Abarca de palo بكلمة بطان وجمعها بطانات ، كما يترجم هاتين الكلمتين اباركادو كالسادو Abarcado calçado بكلمتي ملابس البطانات . ويقول كوباروفياس عن كلمة اباركا Abarca في كتابه (كنز اللغة القشتالية): البطان هو نوع من الاحذية القروية التي يستعملها القرويون . وهذه الاحذية على طرازين : الطراز الاول معمول من الخشب . ولما كان لها شكل الزوارق المسطحة فقد سميت :

« Avarcas » (que por tener forma de varcas, se dixeron avarcas)

اما الطراز الآخر فمعمول من جلد الثور المدبوغ، وهي تشد الى الاقدام بخيوط غليظة ويوجد تحت الجلد قطع من الجوخ . وبواسطة هذه الاحذية يستطاع المشي على الثلج دون تعرض لخطر » . والملاحظ كل الملاحظ ان الكلمة العربية بطان وجمعها بطائن تعني كذلك قاربا صغيرا . فيبدو لي اذن انه من المحتمل كل الاحتمال ان الاسم العربي بطان قد سمي به نوع من هذه الاحذية ، لانها كانت تشبه قاربا مسطحا ، شأنها شأن الكلمة الاسبانية abarca (avarca) .

البغلطاق او البغلوطاق

لا وجود لهذه الكلمة في القاموس .

وقد سبق لعالمين جليلين من الطراز الاول هما كاترمير في كتابه (تاريخ السلاطين المماليك ، ج 1 ، ق 2 ، ص 75 و 76) وفليشر في كتابه (De glossis Habichtiani, pag. 32) ان جمعا تفصيلات عن هذه الكلمة . فلا يسعنا هنا الا ان نقدم نتيجة ابحاثهما .

ان كلمة بغلطاق او بغلوطاق التي جمعها بغالطق تشير الى : قميص بغير ردنين او بردنين قصيرتين للغاية ، وهو يلبس تحت الفرجية . وكان يصنع من قطن بعلبك الابيض (1) او الاخضر وقد وجدت في

(1) اؤمل الا يفتاظ القراء حين يجدون هنا بعض التفاصيل عن قطن بعلبك الابيض. فاننا نقرا لدى ابن اياس (تاريخ مصر ، مخ 367 ، ص 104) : « وفيها استأذن السلطان القاضي بدر الدين محمود الكلشاني كاتب السر الشريف في ان العسكر يلبس الصوف الماون . فأذن لهم في ذلك . وكانوا لا يلبسون الا الصوف الابيض فقط . وكان أرباب الدولة المتعممون يلبسون في الصيف البعلبكي الابيض ، وفي الشتاء الصوف الابيض. فأول من لبس الصوف الاخضر القاضي شرف الدين الدماميني ناظر الجيش الذي تولى بعد القصيري فتبعه بقية المباشرين ». ولا توجد كلمة الكلشاني في كتاب « لب الالباب » . وفي مكان آخر ص103 يقول نفس المؤلف : « عشرين حمال اثواب بعلبكي » . وانا الاحظ عابرا وجوب اضافة (حمال) في هذا المعنى الى القاموس . واقرا لدى نفس المؤلف ص 35 ، 123 . اذ يبدو ان الاقمشة القطنية البعلبكية كانت تستعمل لتكفين الموتى ، لاننا نطالع لدى ابن اياس (المرجع السابق ،ص 352) بصدد الطاعون المشهور الذي حاق بمصر عام 833 : « وتزايد الموت حتى صاروا لا يجدون النعوش ويحملون الاموات على الابواب وما اشبه ذلك. وصار البعلبكي والبطائن لا توجد وارتفع سعرها جدا ». ويجب اضافة كلمة نعوش الموجودة لدى (D. Germano de Silesia, pag. 243)الى القاموس . وانني اترجم كلمة بطينة على هذه الشاكلة مقتفيا اثر بيدرو دي الكالا في كتابه (مفردات) الذي يترجمها Baldres . ويخيل الي

(تاريخ مصر للنويري : مخ 2 ، ص 116) ان هـذا الثوب كان يصنع ايضا من الاطلس المديني (المعدني) Madin . ونحن نقرا فيه كلمة (بفلطات ولكنها اغلوطة) . وكانت هذه الثياب تزين بالجواهر واللآلىء بل كان بعضها ينسج ويطعم كله بالاحجار الكريمة . واخيرا فهو نفس اللباس الذي كان يدعي قباسلارى، وكان شائع الاستعمال رفيع الشهرة اثناء حكم الملك الناصر محمد وكان قد رفع قدره الامير (سـلار) فسمي باسمه . اما كلمة (بفلتاق) الفارسية الاصل فيبدو انها لم تكن مستعملة الا فى مصر .

البقيـر والبقـــرة

نحن نقرا لدى الجوهري (ج 1 ــ مخ 85 ــ ص 362) : «البقير والبقيـرة الاتب . وهو قميـص لا كمين له تلبسه النساء . ونقرا نفـس المعنـى فى القاموس (ط كلكتا ــ ص 466) : « برد يشق فيلبس بلا كمين كالبقيرة » . (راجع كلمة اتب) .

البقيـــار

لا وجود لهذه الكلمة فى القاموس .

ولكننا نقرا لدى النويري (تاريخ مصر ــ مخ 3 ورقة 69) بمناسبة وفاة قاضي القضاة شمس الدين احمد بن الخليل ــ التي حدثت عـام 237 : « واما سبب ولايته القضاء بدمشق فانه قد بلغ الملك المعظم عن القاضي جمال الدين المصري قاضي قضاة دمشق انه يتعاطى الشـراب . فأراد تحقيـق ذلك عيانـا . فاستدعاه وهو فى مجلس الشراب . فحضر اليه . فلما رآه قام اليه وناوله هنابا مملوءا خمرا . فولـى القاضي جمال الدين المصري ورجع فغاب هنيـة . ثم عاد وقد خلع ثياب القضاء : الطرحـة والبقيـار والفوقانية . ولبس قباء وتعمم بتخفيفة وحمل منديلا. ودخل على الملك فى زي الندماء وقبل الارض وتناول الهناب من يده وشرب ما فيه ونادم المعظم فأحسن منادمته . فاعجبه . واعتذر من فراره انـه مـا كان يمكنه تعاطي ذلك وهو فى زي القضاة . فاغتبط الملك المعظم به . ولما انقضى مجلس الشراب ورجع المعظم الى حسه علم انه لا يجوز له ان يقره على ولاية القضاء وقد شاهد من امره ما شاهد . ففوض القضاء للقاضي شمس الدين وخلع عليه » .

نرى من هذه الحكاية الغريبة ان البقيـار كـان ملبوس القاضي على وجه التخصيص ــ والقضية الان هي قضية ان نعلم ماهية هذا اللباس . ان كلمة بقيار او بقياز تعني بالفارسية قواميسنا :

« Tapeti non villosi genus (nigrum, ex pililisca-melinis) »

وهذا ما يحملني على التفكير ان كلمة بقيار فى كلامنا هذا كانت تعني : « نوعا من الثياب المصنوعة من وبر البعير ــ وكان هـذا الثوب يرتـدى تحـت الفوقانية. والحقيقة ان البقيار وفق راى الزمخشري: (مقدمة الادب، ق 1، ص 62 : Lexicon arab.-pers.) يدل على نفس الثوب المسمى بـ (بركان) ــ راجع هذه الكلمـــة .

ان الجثث كانت تكفن بهذه البطائن، وبالرغم من أن هذه العادة لم تعد متحكمة فى مصر فاننا نرى مع ذلك بشهادة لين (المصريون المحدثون ، ج 2 ،ص 321) وشهادات مؤلفين آخرين ان جثث الموتى كانت تكفن فى قطع عديدة من القماش . فاذا لم اكن متوهما فى ترجمتي لعبارة ابن اياس فانه ينبغي تقبل زعمي فى ان القدماء كانوا يكفنون الجثث بقطعة من القماش القطني الابيض ثم يدرجونها فى جلد خروف مدبوغ . ونجد لدى ابن بطوطة (الرحلة ، مخ دى كايانكوس ، ص 30) : ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره » . ويمكن الرجوع الى مارمول فى كتابه (وصف افريقيا، ج 3 ، ص 111) وما تزال بعلبك حتى ايامنا هذه مشهورة بمصنوعاتها القطنية البيضاء . فنحن نقرا فى كتاب بركهارت (رحلات الى سورية ، ص 15) : « ان سكان بعلبك يصنعون اقمشة من القطن الابيض شبيهة باقمشة زحلة » .

ويبدو ان كلمة بعلبكي تعني كذلك اقمشة حريرية ، فاننا على الاقل نقرا فى كتاب الف ليلة وليلة ، طبعة هابيخت ، ج 3 ، ص 139) : «قلع الخليفةمن علية ثوبين سكندري وبعلبكي من حرير» . وانظر حول صفة معدني ملاحظة كاترمير (تاريخ السلاطين المماليك ، ج 2 ، ق 1 ، ص 33) فحسب راي هذا العالم الجليل أن الكلمة مشتقة من مدينة معدن Madin ، الواقعة فى ارمينيا ، قرب الفرع الرئيسي من فروع دجلة . وكانت هذه البلدةمشهورة باقمشتها الاطلسية البديعة التي تصنع فيها.